MAG 710_07/02

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان -

كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية

قسم : الثقافة الشعبية

سجل تحت رقم 1079
جارد
الرقم 31 ماي 2008

جامعة أبي بكر بلقايد تلمسان
كلية الآداب و العلوم الإنسانية و العلوم الاجتماعية
مكتبة الكلية

الشيخ أبو مدين شعيب وأثره

(الولي الصالح سيدي بومدين)

رسالة لنيل شهادة ماجستير في الأدب الشعبي

تقديم الطالبة :

نسيمة مكيوي

إشراف :

أ.د. محمد مرتاض

لجنة المناقشة :

- أ/د. عكاشة شايف	- جامعة تلمسان -	رئيسا
- أ/د. محمد مرتاض	- جامعة تلمسان -	مشرفا ومقررا
- أ/د. عبد الحميد حاجيات	- جامعة تلمسان -	عضوا
- د. مصطفى أوشاطر	- جامعة تلمسان -	عضوا
- د. حسين فارسي	- جامعة تلمسان -	عضوا

السنة الجامعية 1427-1428هـ/ 2006-2007م

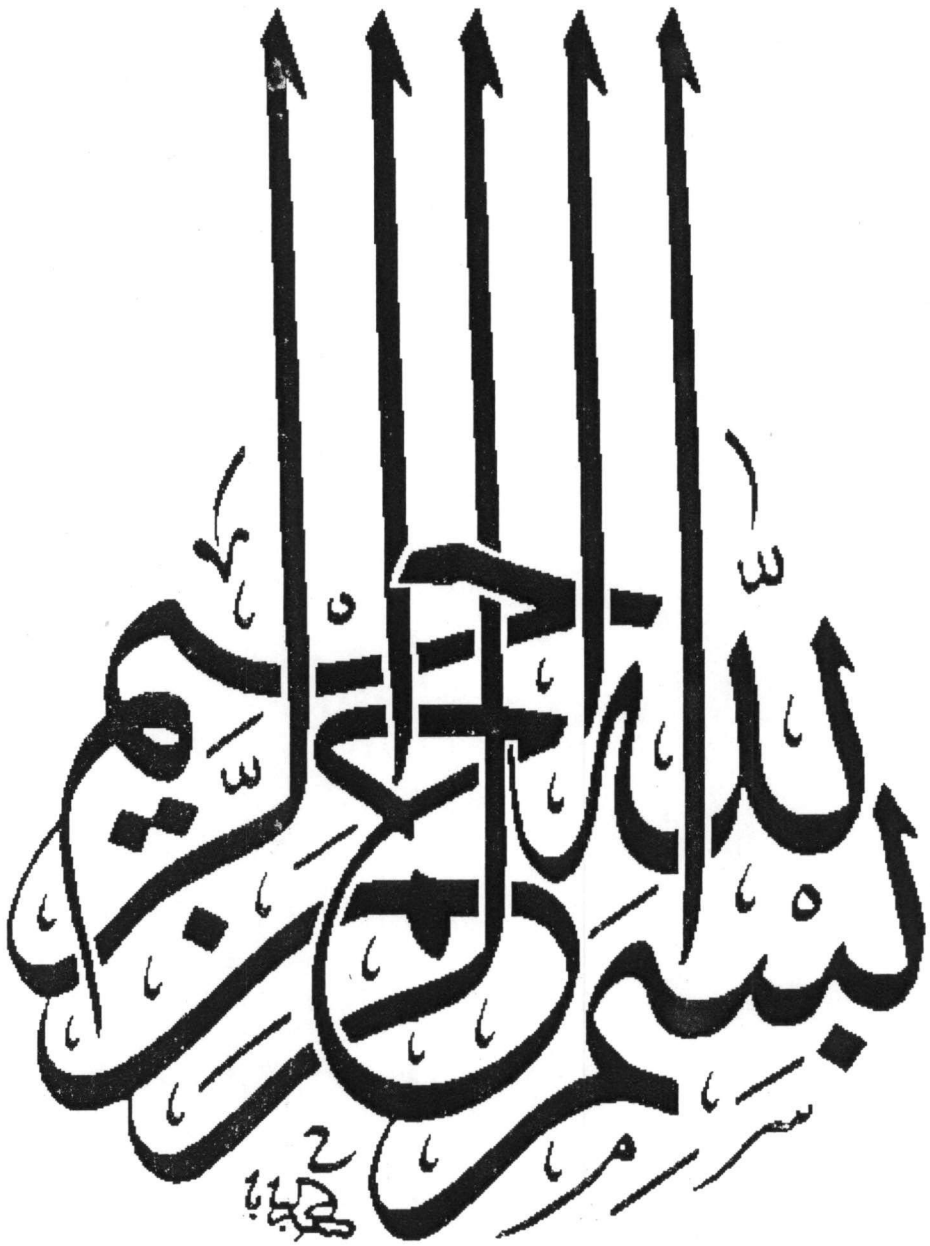
بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر وتقدير

يسرني أن أتقدم بالشكر الجزيل إلى أستاذي الدكتور "محمد مرتاض" على قبوله الإشراف على رسالتي ، وعلى سعة صدره وإمداده يد العون لي طيلة المدّة الّتي استغرقها هذا البحث .

كما لا أنسى أن أتقدم بالشكر و التقدير إلى أساتذة أعضاء اللجنة العلمية على تفضلهم مناقشة رسالتي .

وفي الأخير أتقدم بالشكر والامتنان إلى أساتذة مخبر الدراسات الأدبية والنقدية وأعلامها في المغرب العربي الذين ساعدوني معنويا وماديا في إنجاز هذا البحث .

والله ولي التوفيق .

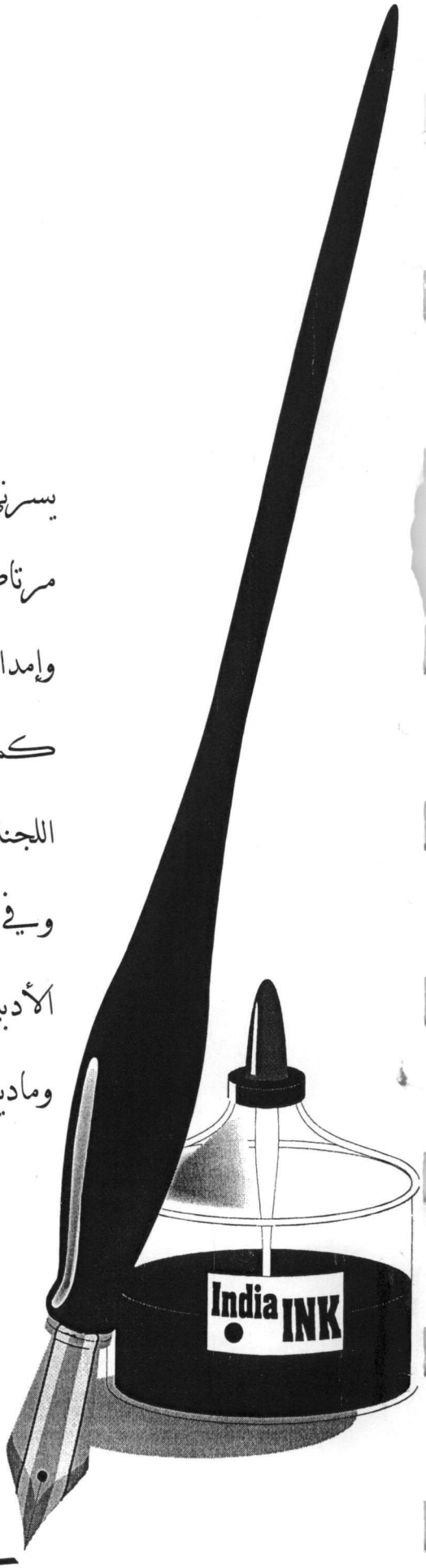

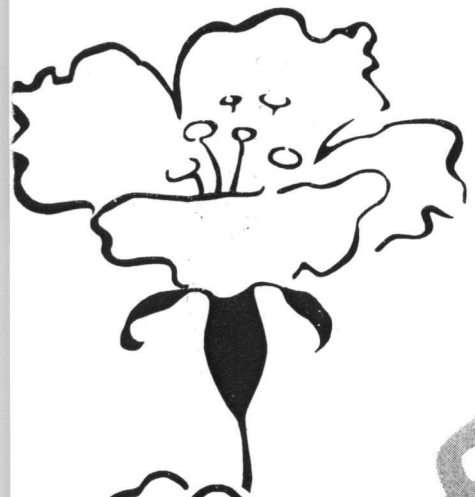

إهداء

إلى والداي الكريمين (أطال الله في عمرهما) اللذين شجعاني كثيرا

على مواصلة العمل في ميدان البحث العلمي

إلى كل أفراد أسرتي إخوتي و أخواتي

إلى كل من ساهم من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل الدؤوب

إلى هؤلاء أهدي ثمرة جهدي.

« من اكتفى بالكلام في العلم دون الاتصاف بحقيقته فقد تزندق وانقطع ومن اكتفى بالتعبد دون فقه خرج وابتدع ، ومن اكتفى بالفقه دون ورع اغترّ وانخدع ، ومن قام بما يجب عليه من الأحكام تخلص وارتفع ».

الشيخ أبو مدين شعيب

المقدمة

المقدمة

لقد أجمع الباحثون على أنّ الصوفية اتخذت نواتها الأولى من الإسلام ، ممّا يعني أنّها إسلامية النشأة ، فلسفية النـــزعة ، أُخضعت لمؤثرات أجنبية فاصطبغت بها، وتعدّدت طرقها ، فعرفت بين أفرادها طبقات من البشر متباينة ومختلفة كالقديسين والمشعوذين والساذجين والمفكرين والمستغرقين في التأمل والوجد ، وكسالى متواكلين ومتطرفين ومعتدلين.

وبما أنّ الإسلام يركز على تعظيم الله ، وإشاعة فكرة الرهب منه ، فقد قويت العاطفة في الدين الإسلامي ، ودفعت أصحابها في طريق صعب ، لأنّها جعلت مثلها الأعلى هو الكمال الروحي والاتحاد بالله في هذه الحياة ، وليس في طاقة البشر الوصول إلى مثل هذا الهدف السامي ، فالصوفية وحدهم سلكوا هذا الطريق ، وأزالوا الرهبة من الله ، وأحلوا الاستئناس محلها ، وأشاعوا عاطفة الحب ؛ أي الحب الإلهي ، فأصبح العابد المسلم يناجي ربه ، وأضحى لسانه يعج بأنواع تعابير الحب الإلهي في التراث الصوفي وبخاصة الشعر منه.

لكن بعض الصوفيين ولاسيما المتطرفين منهم بالغوا في الحب فسقطوا في الحلول وزعموا أنّ الحبّ يوحد بين المحبين ، ولم يقتصر حبّهم على الله ، فقد أحبوا المخلوقات لأنّها مظاهر لصفاته تعالى.

وهذا ما أثار حفيظة طائفة من المسلمين كالخوارج على هؤلاء الصوفيين واتهموهم بالخروج عن نطاق الإسلام ، لكن المتصوّفين السنّيين الذي اعتمد

تصوفهم على القرآن الكريم والسنة النبوية المحمدية ، لم يعلنوا العداء إلاّ للصوفيين المتطرفين — في نظرهم - فزعموا أنّهم يتلقون الأوامر والنواهي من الله تعالى مباشرة بعد اتحادهم به ومعرفتهم بالكشف ، وأنّ الأديان على تنوعها ليست إلاّ وسيلة لمعرفة الله والاتصال به ، فاستغنوا عن الشرائع والعقائد الدينية واعتبروها خاصة بالعامة وبالمتصوفين المبتدئين ، أمّا هم فوصلوا درجة الكمال وليسوا بحاجة إلى هذه العبادات والعقائد ، فتساوى لديهم الكفر والإيمان ، واكتفوا بباطن الشريعة دون الظاهر ، فثار عليهم الفقهاء والمحدثون لتفلسفهم ولادعاءاتهم بالاتحاد بالله والحلول.

وقد حاول الصوفيون عبثا الدفاع عن آرائهم المتطرفة بتأويل الآيات القرآنية لكنهم أصبحوا هدفا للاضطهاد والقتل والنفي والتشريد.

إذا كان التصوف في المشرق العربي قد شدّ انتباه الدارسين والفلاسفة والباحثين وأسال الحبر على الورق ، فقد شهد المغرب العربي شهادة ميلاد قطب من أقطاب الصوفية ، وشيخا من المشايخ الأجلاء وهو الولي الصالح أبو مدين شعيب التلمساني الأندلسي الأصل ، والذي ساهم بقسط كبير في انتشار التصوف في هذه الرقعة ، واتسع هذا الانتشار إلى البلدان العربية الأخرى وحتّى الغربية.

وتعتبر شخصية أبي مدين من الشخصيات الصوفية المهمة الّتي ساهمت في انتشار ظاهرة التصوف ، وفي إثراء التراث الصوفي لدى العامة والخاصة في الوطن العربي ، فما زال الناس — حتّى يومنا هذا — يلتمسون بركته ويقبلون على زيارة ضريحه.

أمّا لماذا وقع اختياري على دراسة هذه الشخصية وإنتاجها الأدبي فيعود إلى عدّة أسباب أهمّها :

1) شهرة الشيخ أبي مدين في العالم العربي.

2) تصوف الشيخ أبي مدين إذ يعتبر التصوف من المواضيع المثيرة والحساسة والغامضة في آن واحد.

3) توضيح تعاليم الصوفية والاطلاع على أفكارهم وإنتاجهم وخطابهم الصوفي.

4) الرغبة في معرفة الكرامات والأعمال الخارقة للعادة الّتي كثيرا ما سمعنا عنها وعن الحكايات الّتي روجت عنهم.

5) التعرف على الأولياء وعلى مناقبهم واتجاهاتهم في الحياة.

ولذلك فقد جاءت الخطة المنهجية متماثلة مع التجربة الصوفية الّتي خاضها الصوفي أبو مدين فقسّمت الموضوع إلى ثلاثة فصول مسبوقة بمقدمة ومذيلة بخاتمة وبملحق وبقائمة المصادر والمراجع وبفهرس للمواد.

تناول الفصل الأوّل حياة أبي مدين شعيب وتكوينه العلمي ، وفيه تعرّضت لنشأته وتكوينه العلمي ، وشيوخه ، وآراء الآخرين فيه ، ثمّ آثاره.

وتطرق الفصل الثاني إلى نثر أبي مدين ، وفيه تحدثت عن كراماته ، وقد احتوى على عناوين جزئية هي : الكرامة والمعجزة ، كرامات أولياء الله تعالى ، مصطلح الصوفية والفقراء، ثمّ تحدثت عن حكمه وقد احتوت على عناوين جزئية وهي حكمه في العلم النافع ، وحكمه في التوكل على الله ، وحكمه في الزهد والقناعة.

وأمّا الفصل الثالث ، فخصصته للمقومات الفنية لنثر أبي مدين شعيب.

وفي الخاتمة عرضت النتائج الّتي توصلت إليها من خلال الدراسة وركزت على بعض النقاط المهمة في شخصية أبي مدين ، وأبديت رأيي بضرورة اهتمام الدارسين والباحثين بهذه الشخصية ، خاصة أنّ معظم إنتاجها ما زال عبارة عن مخطوطات موجودة في المكتبات العربية والغربية ، تنتظر من ينفض عنها الغبار ، ويخرجها إلى ميدان البحث للاستفادة من كنوزها الثمينة.

وأمّا أهمّ الدراسات التي تناولت دراسة شخصية أبي مدين فهي : "شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث لعبد الحليم محمود شيخ الأزهر " ، " شعر أبي مدين التلمساني (الرؤية والتشكيل) لمختار حبار" ، " أبو مدين شعيب حياته وأدبه لحسين فارسي " ، "العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب الجزاء الأوّل لمحمد الطاهر علاوي" ، "المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية في جزئين للعلاوي ".

هذا وعلى الرغم من أنّ أبا مدين كان رائدا من رواد التصوف ومدرسة صوفية كبيرة تخرّج منها الشيوخ والأولياء ودرايته الكاملة بفنون المعرفة الإسلامية والّتي شهد له بها معاصروه بالعلوم الّتي اكتسبها والّتي درسها في آن واحد ، إلاّ أنّنا صادفنا صعوبات أثناء دراستنا لهذه الشخصية الصوفية إذ لم نعثر على دراسة تحليلية دقيقة حللت خطابه الصوفي بناء على نظرياته وآرائه الصوفية ، ما عدا الدراسة الّتي قام بها شيخ الأزهر عبد الحليم محمود (أبو مدين الغوث) والّتي تناولت تجربته الصوفية أكثر ممّا تناولت إنتاجه الصوفي.

ويرجع ذلك إلى قلة مؤلفاته ، ولعلّ الخطوة الإيجابية الّتي قام بها مصطفى شوار التلمساني المتمثلة في جمع الديوان وترتيبه ليست كافية ، إذ ينقصه التحقيق

والتوثيق العلمي ، وهذا ما جعل ديوانه يعتبر أقل الدواوين حجما إذا ما قورن بالأدباء الصوفيين كابن عربي وابن الفارض.

وأمّا المنهج الذي اتبعته في هذه الدراسة فهو المنهج الوصفي التحليلي الذي يرتكز على دراسة هذه الشخصية الصوفية دراسة تحليلية ، وإظهار كل الجوانب الخفية والغامضة فيها ، خاصة أنّ التصوف موضوع شاسع ويتّسم بالغموض والإبهام وصعوبة الخوض فيه ، فالمنهج الوصفي التحليلي هو الأليق بمثل هذه الدراسة في تصوري.

تلمسان في : 19 شوال 1427هـ الموافق لـــ 11 نوفمبر 2006

نسيمة مكيوي

الفصل الأوّل

حياة أبي مدين

شعيب وتكوينه العلمي

1- نشأته وتكوينه العلمي :

هو الشيخ الزاهد ، العارف الكبير ، قطب التصوف ، القدوة ، " أبو مدين شعيب بن الحسن ، الأنصاري ، الأندلسي ، الإشبيلي ، المالكي "[1] ، القطنيابي ، المغربي، البجائي ، التلمساني.

وكنيته " أبو مدين " تكنّى بابنه " مدين " ذي الفضائل المشهورة دفين مصر بجامع الشيخ عبد القادر الدشطوطي ببركة القرعي خارج السور.

« ولد بقرية قطناينة وهي تبعد عن إشبيلية بثمانية أميال على شاطئ النهر المسمى بالواد الكبير »[2].

« وقد اختلف العلماء في عام ولادته فقيل سنة 520ه الموافق لـــ 1126 م ، وقيل سنة 509ه الموافق لـــ 1115 م ، وقيل 503ه الموافق لـــ 1109م ، وقيل عام 504ه الموافق لـــ 1110م ، وقيل 505ه الماوفق لـــ 1111م »[3].

والأرجح أنّه ولد سنة 509ه الموافق لـــ 1115م استنادا إلى رواية المؤرخ العلامة محمد بن حمدون البناني حين تعرّض لوفاته فقال : « توفي سيدي أبو مدين شعيب بن الحسين الأندلسي في سنة أربع وتسعين وخمسمائة عن نحو خمس وثمانين سنة ، أي المولد كان في سنة تسعة وخمسمائة »[4].

---

[1] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، شركة دار الأمة ، ط 1 ، سنة 2004 ، ص 14.

[2] – السعادة الأبدية ، أبي مدين شعيب ، جمعه عبد الحميد حميدو التلمساني ، طبع بالمطبعة الجديدة بفاس ، 1935، ص 37.

[3] – عنوان التوفيق في أدب الطريق ، ابن عطاء الله السكندري، تحقيق خالد زهري، دار الكتب العلمية، ط1 ، لبنان، 2004م، ص 11.

[4] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 14.

نشأ أبو مدين يتيما في أسرة فقيرة ، ولّما توفي والده في سنّ مبكرة كلّفه إخوته برعي مواشيهم – كان أصغرهم سنّا –[1] وفي نفسه حاجة إلى تعلّم قراءة القرآن والصلاة، فقرّر ترك الماشية وعزم على الفرار وقد حكى ذلك بنفسه فقال : « كنت بالأندلس يتيما ، فجعلني إخوتي راعيا لمواشيهم ، فإذا رأيت من يصلي ومن يقرأ أعجبني ودنوت منه ، وأجد في نفسي غما لأنّي لا أحفظ شيئا من القرآن ، ولا أعرف كيف أصلي ، فقويت عزيمتي على الفرار لتعلّم القراءة والصلاة ففررت..»[2].

فقويت عزيمته على الفرار فهرب ، فأدركه أحد إخوته وهدّده بالحربة ، فتلقى الفتى الضربة بعصاه وانكسر السيف وتطاير قطعا ، فلمّا رأى أخوه ذلك قال له : « يا أخي اذهب حيث شئت »[3].

وهكذا غادر أبو مدين الأندلس ، فعبر مضيق جبل طارق إلى مدينة طنجة ، ثمّ إلى مدينة سبتة ، فعمل أجيرا لبعض الصيادين ، ثمّ توجه إلى مدينة مراكش ، وأدخلوه جنديا في صفوفهم ، فتألّم لهذا الوضع الذي آل إليه ، فصار يسأل عن مجالس العلم فقيل له : « إن أردت أن تتفرغ لدينك فعليك بمدينة فاس »[4] ، اتجه أبو مدين إلى مدينة فاس فيقول : « فتوجهت إليها ولزمت جامعها وتعلّمت الوضوء والصلاة »[5].

---

[1] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، اتحاد كتاب العرب ، دمشق ، 2002 ، ص 9.

[2] – أبو مدين شعيب – حياته وأدبه ، حسين فارسي ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، 2005 ، ص 26.

[3] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 15.

[4] – المرجع نفسه ، ص 16.

[5] – أبو مدين شعيب ، حسين فارسي ، ص 30.

وقد اشتهرت فاس قديما بجامع " القرويين " الذي أسس في عهد إدريس الثاني، وهو من أهمّ المعالم الحضارية والعلمية الّتي تزخر بها هذه المدينة والّتي انتهت في أيام المرابطين وأيام الموحدين من بعدهم من العمارة والغبطة والرفاهية ما لم تبلغه مدينة من مدن المغرب[1].

ولزم أبو مدين الجامع وسار ينتقل من مجلس إلى مجلس ومن درس إلى درس للاقتباس من شتى العلوم ، لكنّه لم يكن يفهم عنهم شيئا ، وهذا ما قاله بنفسه : «وكنت أجلس إلى حلق الفقهاء والمذكرين ، فلا أثبت على شيء من كلامهم »[2]، إلى أن جلس مجلسا كلّما تكلم صاحبه بكلام ثبت في قلبه وحفظه ، فسأل عن الشيخ فقيل له إنّه : "أبو الحسن بن حرزهم" ، فدنا منه أبو مدين وقال له : «حضرت مجالس كثيرة، فلم أثبت على ما يقال ، وأنت كلّما سمعت منك حفظته ، فقال له : هم يتكلمون بأطراف ألسنتهم ، فلا يجاوز كلامهم الآذان ، وأنا قصدت الله بكلامي فخرج من القلب »[3].

وكان هذا الشيخ زاهدا صوفيا ، فقيها ، محدثا ، فلازم أبو مدين مجلسه وقرأ عليه كتاب " الرعاية لحقوق الله " للمحاسبي ، و" إحياء علوم الدين " للغزالي ، ثمّ تردّد على مجلس فقيه فاس وعالمها الشيخ " أبي الحسن بن غالب " وأخذ عنه كتاب "السنن في الحديث" للإمام الترمذي ، بينما أخذ التصوف ، بوصفه علما نظريا ، عن الشيخ أبي عبد الله الدقاق « وبعد أن تزود أبو مدين شعيب بعلوم الظاهر

[1] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 16.
[2] – المرجع نفسه ، ص 17.
[3] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، ص 10.

اشرأبّت نفسه لتلقي علوم الباطن أو فنّ التصوف »[1] ، فسمع بالشيخ الزاهد المتصوف " أبي يعزى " ، وقد حكيت عنه أعاجيب الأخبار في الكرامات لخّصها أبو مدين في قوله : « طالعت أخبار الصالحين من زمان أويس القرني إلى زمننا فما رأيت أعجب من أبي يعزى وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالإحياء للغزالي »[2].

وكان " أبو يعزى " يمتحن مريديه امتحانا عسيرا في بداية السلوك ، ليختبر صدق الإرادة من زيفها ، وقد تأثر أبو مدين بشيخه تأثرا كبيرا ، ونتيجة هذا التأثير والإعجاب، أخذ الشيخ أبو مدين يتردّد على الشيخ أبي يعزى في خلوته أياما ولياليَ، فعمل الشيخ على امتحانه واختبار صبره وإيمانه بوسائل شتّى ومتنوّعة ، أحيانا بالإعراض عنه ومقاطعته وعدم مكالمته ، وبحرمانه من الطعام ، وتركه للجوع عدّة أيام ، وأحيانا بإرساله إلى أماكن بعيدة فيها أسود متوحشة أو لصوص وقطاع الطرق ، وكان الشيخ أبو يعزى يقول للحاضرين : « هذا يكون له شأن عظيم »[3].

ولكن أبا مدين صبر لكل هذا وذلك بكثرة تردّده عليه ، وكان إذا رآه الشيخ أبو يعزى يقول لأتباعه بلسانه البربري الشلحي : « آشك أركاز الأندلسي»، أي « تعالى يا رجل الرجال الأندلسي »[4] ، وهكذا فاز في الأخير برضا شيخه وبسره الصوفي، فباركه وورثه علمه الروحي ، وبعد أعوام طويلة من الجدّ والمثابرة اكتسب خلالها الكثير من الحقائق والمعارف الصوفية ، اشرأبّت نفسه لأداء فريضة الحج.

---

[1] – مدينة تلمسان عاصمة المغرب الأوسط ، يحي بوعزيز ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، ط2 ، 2003 ، ص 79.

[2] – المرجع نفسه ، ص 79.

[3] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، ص 11.

[4] – المرجع نفسه ، ص 11.

ثم قصد بعد ذلك البقاع المقدسة للحج والعمرة ، ولقي هناك طائفة من العلماء والأولياء ومن بينهم العالم الجليل الصوفي "عبد القادر الجيلاني" أو الكيلاني صاحب الطريقة القادرية ، فقرأ عليه في الحرم الشريف كثيرا من الأحاديث وألبسه خرقة الصوفية وأودعه كثيرا من أسراره وحلاه بملابس أنواره وكان أبو مدين يفتخر بصحبته ويعده أفضل مشايخ الأكابر[1]. ويكون أبو مدين أوّل من نقل الطريقة القادرية إلى بلاد المغرب ، وإن كانت تنسب إليه الطريقة المدينية[2].

ولما قدم من الحج استقر بمدينة بجاية، وكان يفضلها على مدن كثيرة لموقعها الإستراتيجي وحسن أخلاق سكانها ، وكان يقول : « بجاية معينة على طلب الحلال »[3] ، وكانت بجاية في ذلك الوقت تحت حكم الموحدين، إذ فتحها عبد المومن بن علي، فاشتغل أبو مدين بالتدريس، في جامعها، ودرّس تفسير القرآن بمسجد أبي زكريا الزواوي بحومة اللؤلؤة ، وكتاب " المقصد الأسني في شرح أسماء الله الحسنى " للغزالي الذي ذكر أنّه بثّ فيه بعض أسرار المكاشفة[4].

كانت بجاية عاصمة المغرب الأوسط في القرن السادس على عهد الأمراء الموحدين ومزدهرة ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا وكانت تزخر بتوافد العلماء عليها من المغرب الكبير والأندلس ، ولقد مكث ببجاية أكثر من خمس عشرة سنة وفيها تزوج بجارية حبشية وأنجب منها ولدا. ومن بين العجائب العديدة التي شاهدها ابن عربي حينئذ ، نراه يذكر خصوصا حالة غريبة من حالات الإيحاء التنويمي حققهـــا

---

[1] – ديوان أبي مدين شعيب جمعه ورتبة العارف الكبير الزاهد الشهير سيدي العربي بن مصطفى الشوار التلمساني ، ط1 ، 1258هـ/1938م ، مطبعة الترقي ، دمشق ، ص8

[2] – عنوان التوفيق في أدب الطريق ، السكندري ، ص 11.

[3] – السعادة الأبدية لأبي مدين شعيب ، عبد الحميد حميدو ، ص 47.

[4] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، ص 12.

أبو مدين مع ابن له عمره سبع سنوات جعله يرى من الشاطئ سفينة تسير من بعيد خارج مرمى البصر[1].

وإذا كانت بوادر النبوغ العلمي والصوفي قد ظهرت على أبي ميدن في فاس ، فإنّ مناقب الشهرة وألقابها التي اتصف بها مثل " شيخ المشايخ " ، صاحب " مقام التوكل " ، " مخرج ألف شيخ " ، " عالم العلماء " ، " الحافظ " ، " المفتي " ، "صاحب الكرامات والخوارق "، " القطب " ، " الغوث " ، قد نالها وهو في بجاية الّتي أحبها وفضلها على مدن كثيرة.

لقد أقام الشيخ أبو مدين ببجاية مكرما معظما يشهد له بالخير، إذ كل من تتلمذ عليه نبغ في العلم وأصبح ذا جاه وعز وثراء ونعمة، وقد ظهر فضله على الناس، فبدأت الوفود تتوافد عليه من كل جهة، ولما رأى إقبال الناس عليه — قرر الانعزال والانقطاع لله تعالى والتأمل في ملكوته وقدرته، وإذ هو على هذه الحالة، وإذا ببعض أحد الأولياء يقول له « رأيت في النوم قائلا يقول لي: قل لأبي مدين بث العلم ولا تبالي ، ترتع غدا مع العوالي ، فإنّك في مقام آدم أبي الذراري ، فأجابه الشيخ – رحمه الله — قائلا له بأنّ هذه الرؤية تأمرني بالجلوس وترك العزم »[2].

وكان أبو مدين منذ إقامته ببجاية حريصا على تربية النشء تربية صالحة، تتمثل في الإفادة والتعليم والعبادة والإقبال على الله، كما قام بتدريس العلم على اختلاف فنونه وأبوابه ولاسيما الحديث والتفسير ، يدعو الله بكيانه كله ، بحديثه

[1] – ابن عربي ، حياته ومذهبه، أسين بلاثيوس، ترجمة عبد الرحمن بدوي، وكالة المطبوعات، الكويت، دار القلم، بيروت، لبنان، ص 35.

[2] – السعادة الأبدية ، عبد الحميد حميدو ، ص50-51.

وبصمته ، وقد أخذ عنه طائفة كبيرة من الفضلاء واستجاب لدعوته جماعة وافرة من الأخبار البررة.

« وورث طريقته الصوفية القادرية إلى تلميذه عبد السلام بن مشيش شيخ شيوخ الطرقة الشاذلية ، وعلى رأسهم أبو الحسن الشاذلي دفين مقبرة الجلاز بمدينة تونس الذي انتشرت طريقته في كل أصقاع بلدان المغرب العربي وغرب إفريقيا »[1].

وكانت تعاليمه الصوفية الّتي قام بنشرها في بجاية تخالف مذاهب الفقهاء الموحدين في تلك المدينة ، فازداد قلق هؤلاء من شهرته الّتي ملأت الآفاق ومن تلامذته الذين تكاثر عددهم.

ولما اشتهر أمره بمدينة بجاية، وشى به بعض علماء الظاهر عند يعقوب المنصور (من أكابر ملوك الموحدين بويع له بالخلافة 580هـ/1148م وتوفى سنة 595هـ/1179م) وقال له إنّه يخاف على دولتكم منه فان له شبها بالإمام المهدي وأتباعه كثيرون في كل بلد ، فتأثر لهذا الكلام وظن به السوء فأمره بالمجيء عنده لكي يتأكد من حسن نواياه، وكتب لحاكم بجاية للاعتناء به عناية خاصة وفي طريقه أثناء السفر ساءت حالته وتألم أصحابه ، فقال لهم أبو مدين : « لا عليكم ، شعيب شيخ كبير ضعيف لا قدرة له على المشي ، منيته قدرت بغير هذه البلدة، ولابد من الوصول إلى محل منيته، فقيض الله له من يحمله برفق ، ويسوقه إلى مرام المقادير أحسن سوق، والقوم لا أراهم ولا يروني »[2].

---

[1] – مدينة تلمسان ، يحي بوعزيز ، ص 82.

[2] – عنوان الدراية في من عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، الغبريني ، تحقيق رابح بونار، ط2 ، رقم النشر 1007/81، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع الجزائر 1981 مركب الطباعة رغاية الجزائر 1981 ، ص60.

فارتاحوا لكلامه واطمأنوا وعلموا أنه من كرامته، فارتجلوا به ولما وصلوا حوز تلمسان، بدت لهم رابطة العباد ، فقال لهم : ما هذه الرابطة ؟ فقالوا هذه رابطة العباد ، فقال: ما أحلاه للرقاد، فمرض ولما وصل واد يسر اشتد مرضه ونزل هناك، فكان آخر كلامه "الله الحق". « فهي خاتمة حسنة ومرتبة عليا مستحسنة ظهر فيها صدق قول الرسول ﷺ : يموت المرء على ما عاش عليه »[1].

وممّا تجدر الإشارة إليه أنّ السلطان الموحدي يعقوب المنصور، كان يعرف باضطهاده للعلماء والفلاسفة ورجال الفكر وفي هذا الصدد يقول الشيال صاحب "أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي " : « واضطُهد الصوفي الكبير أبا مدين ، وأرسل الخليفة يستدعيه من بجاية لمحاكمته »[2].

فكل الروايات تشير إلى أنّ سبب استدعاء السلطان الشيخ أبا مدين ليس من أجل إكرام الضيافة وإنّما القصد من ذلك هو المحاكمة ، ووضع حدّ لهذا الولي الصالح ، إذ كانت تعاليمه الصوفية الجريئة تخالف مذهب الفقهاء الموحدين ، وخوفا كذلك على عرشه وملكه.

وإن كان ما حدث للشيخ أبي مدين - القطب الرباني — مع الخليفة الموحدي واستدعاؤه للمحاكمة - كما روي — ليس غريبا أو بالأمر الجديد ، فالتاريخ يحدثنا عن وقائع كثيرة ومحن أصابت الفقهاء والعلماء والمحدثين ، ولم ينج حتّى رجال التصوف من مواقف بعض الحكام المسلمين ، فهناك من مات مقتولا كالقطب الشهير " عبد السلام بن مشيش " ، وهناك من زجّ به في السجن ، إلى

[1] - أنس الفقير وعز الحقير ، ابن قنفذ القسنطيني ، ص 17.

[2] - أبو مدين شعيب ، حسين فارسي ، ص 37.

غير ذلك من المحن والمصائب الّتي ابتلي بها رجال الدين « إنّها سنّة الله في خلقه ، فأولياؤه وأنبياؤه أشد الناس بلاء »[1].

توفي أبو مدين سنة 594هـ الموافق لـــ 1198م ، فحمل للعباد مدفن الأولياء والأوتاد، وخرج أهل تلمسان لجنازته، فكانت مشهدا عظيما[2].

ومنذ وفاته أصبح أبو مدين ولي مدينة تلمسان، ويذكر بأنّ المدينة نمت وازدهرت ببركاته ، كما نمت قرية العباد حول قبره، وقد بنى فيه قبة أبي مدين السلطان الموحدي الناصر، وأضاف الأمراء والملوك الذين حكموا تلمسان الكثير من الزخارف إلى قبره، بالإضافة إلى المنشآت الفخمة الّتي مازالت باقية حتى يومنا هذا ومنها الجامع والمدرسة التي تحملان اسمه (جامع ومدرسة سيدي بومدين).

وقد مرّت على وفاته الآن أكثر من سبعة قرون ، ولكن قبره ومسجده في العباد ما يزالان محطّ الرعاية والاحترام ، كما أنّه ما يزال يذكر بفاس عين سيدي بومدين ، قرب مسجد حي الرميلة بجانب قنطرة ، الذي كان مقصدا لإحياء ليلة المولد النبوي الشريف ، وتوجد بمقصرة هذا المسجد قبر شيخه أبي يعزى.

ولا يزال أبو مدين يذكر بتونس بواسطة جماعة زاوية سيدي بومدين ، وهي جماعة الشيخ المختار الكسراوي الّتي تجتمع للذكر وتلاوة البدرية والهمزية ودلائل الخيرات.

---

[1] – أبو مدين شعيب ، حسين فارسي ، ص 41.

[2] – نيل الإبتهاج بتطريز الديباج ، أحمد بابا التنبكتي ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية ، طرابلس ، ط1/1989م ، ص197.

ولأهمّية ماضي أبي مدين العلمي والثقافي ، وضريحه ومسجده اهتمت الدولة الجزائرية به ، وقرّرت أن يتخذ العباد كمجمع ثقافي هام ، على أن تجرى عليه إصلاحات وترميمات تليق بماضيه الفكري والثقافي ، وبهندسته المعمارية الإسلامية الجميلة ، وذلك من اجل إبراز دور تلمسان خاصة والجزائر عامة في تطوير وتنمية الحضارة الإسلامية في العالم الإسلامي[1].

أوقاف أبي مدين في القدس :

أوقاف جمع وقف ، والوقف لغة : بمعنى حبس ، وشرعا : « حبس العين المملوكة ملكا تاما »[2] ، عقارا ، أو منقولا ، على حكم الله تعالى والتصدق به بمنفعته لفائدة المسلمين وعلى ذوي القربى وغيرهم ، ويعتبر الوقف نوعا من الإحسان الذي تنصّ عليه الشريعة الإسلامية ، والوقف يتمثل في المساجد ، المدارس، المشافي ، الملاجئ والمستشفيات.

لقد خاض المسلمون حروبا مع الصليبيين ، عرفت بالحروب الصليبية ، وذلك من أجل تحرير القدس ، ولا ننسى هنا مشاركة سكان المغرب العربي في هذه الحروب وتطوعهم والتضحية بالنفس والنفيس ، وقد تضاربت الروايات حول جهاد الولي الصالح في هذه الحروب ، فقيل أنّه فقد ذراعه الأيمن ، المهمّ أنّ الشيخ أبا مدين كان موجودا في القدس ، وشارك في هذه المعارك بعد فتح صلاح الدين الأيوبي لها سنة 583هـ الموافق لـــ 1187م.

---

[1] – مدينة تلمسان ، يحي بوعزيز ، ص 85.

[2] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 64.

« وقد وقّف منطقتين كانتا تحت ملكه وتصرفه في القدس لصالح المغاربة المقيمين بها للانتفاع بالسكن والإيجار والمقاسمة والزراعة »[1] ، وتتمثل هاتين المنطقتين في الحدّ الشرقي لحائط المبكى ، وقرية عين كارم ، « وتوجد صورة لوثيقة الوقف محفوظة في كلية الدراسات الشرقية بجامعة لندن ، وفي مكتبة كلية سانت أنطوني بجامعة أكسفورد ، تثبت أنّ حائط البراق وقف إسلامي ثابت ومقيد في سجل الأوقاف في عام 666هـ/1268م ، ثمّ أعيد تقييده في عام 1004هـ/1595م ، ويعرف باسم وقفية أبو مدين»[2].

إذن ، فأوقاف أبي مدين هي حارة المغاربة المجاورة لحائط البراق ، وقرية عين كارم بكاملها (تقع جنوب غرب مدينة القدس) حتّى سنة 1948م ، وهي مسجلة في الوثائق العثمانية وفي المحاكم الشرعية للقدس منذ العصور الوسطى ، وهذا ما يؤكده السيد الطيب عبد الرحيم أمين عام الرئاسة الفلسطينية في مؤتمر " نصرة القدس " في الكلمة الّتي ألقاها بهذه المناسبة إذ جاء فيها أنّ حارة المغاربة مع حائط البراق ، وقرية عين كارم بكاملها ببيوتها ، آبارها ، أرضها هي وقف ذري لأبي مدين شعيب الأندلسي[3].

---

[1] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 64.

[2] – المرجع نفسه ، ص 65.

[3] – المرجع نفسه ، ص 66.

– **ملاحظة** : يراجع نص وثيقة وقف أبي مدين عام 720هـ/1320م في كتاب العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 67 – 68 – 69 – 70.

2- **شيـــوخه** :

للشيخ أبي مدين شيوخ كبار ، وعلماء أجلاء أشهرهم :

أ) **الشيخ بن حرزهم** :

هو أبو الحسن علي إسماعيل بن عبد الله بن حرزهم، ولد بفاس ونشأ بها ، ويعدّ من كبار الفقهاء ، كان متصوفا زاهدا له كرمات وفراسات ، وكان والده وأخوه من كبار الصالحين[1].

لقد اتّبع في التصوف نمط الملامتية، والملامتية يحبون دائما أن يخفى أمرهم على الناس في العبادة وفي الإقبال على الله ويرون أن الإخلاص يتوافر في ذلك في صورة أكمل[2].

وللشيخ بن حرزهم قصة مع كتاب إحياء علوم الدين ، وهي قصة مشهورة، تحدث هو بها ورواها عنه الكثيرون إذ يقول : « اعتكفت على قراءة إحياء علوم الدين للغزالي في بيتي مدّة من عام ، فجردت المسائل التي تنتقد عليه، وعزمت على حرق الكتاب، فلمّا نمت رأيت قائل بقول: جروه واضربوه حد الفرية، فضربت ثمانين شوطا، فلما استيقظت جعلت اقلب ظهري فوجدت به ألما شديدا من ذلك الضرب، فتبت إلى الله تعالى بما اعتقدت، ثم بعد ذلك تأملت تلك المسائل فوجدتها موافقة للكتاب والسنة »[3].

---

[1] - الديوان ، ص 15.

[2] - شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث – حياته ومعراجه إلى الله، عبد الحليم محمود، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، د.ط ، د.ت، ص 28.

[3] - المرجع نفسه ، ص 28.

أما عن وفاته ، فيروى عنه أنّه كان يقول لن أصوم مع الناس هذا الشهر المستقبل، يعني شهر رمضان... ولم يبق إلاّ ثلاثة أيام أو أربعة من شهر شعبان ، والناس يتعجبون من كلامة وهو مازال حيا ، وقد قرب رمضان فأدركه الموت قبل دخول رمضان وهذا كذاك من كراماته ، وكانت وفاته رحمه الله عام تسعة وخمسين وخمس مائة (559) ودفن خرج باب الفتوح من أبواب فاس[1].

هذا هو " ابن حرزهم " الذي كان أولى شمعة أنارت طريق الشيخ حياة أبي مدين، ومن الكتب التي طالعها ابن حرزهم فتبعه في ذلك الشيخ أبو مدين كتاب الرعاية لحقوق اللهلمؤلفة للإمام الحارث المحاسبي[2].

ويعتبر هذا الكتاب من كتب التذكير بالله القيّمة ، وهو أهم كتاب ألفه "المحاسبي" لأنّه عبارة عن دراسة نفسية معمقة لحياة الفرد، وقد قرأه حجة الإسلام الإمام الغزالي إذا استفاد منه في كتابه إحياء علوم الدين، وهو نموذج إرشاد وهداية.

كما درس أبو مدين على " ابن حرزهم " كتابا آخر في التذكير هو كتاب "إحياء علوم الدين" للإمام الغزالي وهذا الكتاب نفيس لما يكتنفه من عبادة وعقيدة وأخلاق والتي هي مستمدة من كتاب الله ومن سنة رسوله[3].

وبهذا يكون الشيخ أبو مدين شعيب قد اندمج في جو العلم والدراسة ، كل ذلك بفصل الشيخ ابن حرزهم، فدرس كتـــاب " السنن " للإمام الترمذي وهو

---

[1] – الديوان ، ص 15.

[2] – أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص 32.

[3] – المرجع نفسه ، ص 32.

كتاب يصم الأحاديث النبوية، وفيه التحري الدقيق في صحة الأحاديث من ضعفها[1].

وهكذا فقد اكتسب الشيخ أبو مدين منهاجا علميا غزيرا ودلك بفضل تتلمذه على ابن حرزهم ، ومما زاد في تقوية تصوفه هو مطالعته المكثفة و العميقة للكتب التي سبق وأن درسها شيخه "ابن حرزهم" ألا وهي - كما سلف الذكر - كتاب الرعاية، كتاب إحياء علوم الدين بالإضافة إلى علوم التصوف الفقهية ، الّتي أخذها مباشرة عن شيخه " ابن حرزهم " ، ولكن بالرغم من هذه الدراسة العميقة المكثفة هل نستطيع القول إنّه أصبح صوفيا ؟ كلاّ ، فالصوفية ليس علما فقط ، وإنما سلوك وممارسة وأفعال، وهذا هو لب التصوف ، الذي أنار قلب أبي مدين وذلك بفضل تتلمذه على الشيخ أبو يعزى ، فمن هو هذا الشيخ؟

ب) **الشيخ أبو يعزى** :

« أبو يعزى يلنور بن خضر بن عبد الرحمن بن ميمون المغربي أحد أئمة أولياء المغرب الكبار الدين أنتشر صيتهم في سائر الأقطار »[2]، كان قوت أبي يعزى نبات الأرض ، وكان يأكل هدر الدفلى ويطعم الزائرين اللّحم والعسل وكان أسود اللون لباسه جبة من تليس مطوقا و برنسا أسود وشاشية من عزف.

كان مقصد للفقهاء من كل حدب وصوب ، وإذا رآهم كان يقول لهم: «مرحبا بمصابيح الدنيا»[3]. وكان هذا الشيخ يمتاز بقسوة أسلوبه في التربية لكنه

---

[1] - أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص 32.

[2] - جامع كرامات الأولياء ، النبهاني ، ج2 ، دار الفكر للطباعة والنشر ، 1993م/1414هـ ، ص526.

[3] - المرجع نفسه ، ص 21.

مثمر وهذا كان كفيلا بأن يبتعد عنه الشيخ أبو مدين لكن الإرادة القوية في الهداية والوصول إلى عمق النور القلبي وإلى قمة التصوف هي الّتي جعلته يقترب من هذا الشيخ المذكور ، وقد ذكر ذلك الشيخ أبو مدين نفسه في أوّل لقاء له مع الشيخ أبي يعزى إذ يقول[1]:

« ثم سمعت الناس يتحدثون بكرامات أبي يعزى فذهبت إليه في جماعة توجهت لزيارته، فلما وصلنا جبل أيروجان، ودخلنا على أبي يعزى أقبل على القوم دوني، فلما أحضر الطعام وقمت إليه نهرني فقمت على تلك الحال ثلاثة أيام وقد أجهدني الجوع ونالني الذل فلما انقضت ثلاثة أيام قام أبو يعزى من مكانه ، فأتيت إلى ذلك المكان ومرغت وجهي فيه فلما رفعت رأسي نظرت فلم أر شيئا وصرت أعمى فبقيت أبكي طول ليلتي، فلما أصبحت استدعاني وقال لي: اقترب يا أندلسي، فدونت منه فمسح بيده على عيني فأبصرت، ثم مسح بيده على صدري، وقال للحاضرين: هذا يكون له شأن عظيم فأدن لي بالانصراف ».

ولكن بالرغم مما ناله الشيخ أبو مدين من قسوة وحفاء وذل واحتقار فإنّه أعاد الكرّة الثانية والثالثة لزيارته « فنال من بركاته، وشاهد العجائب من كراماته»[2]، وكان الشيخ أبو يعزى لا يجامل أحدا ، بل كان جريئا في كلامه يصف الإنسان بصفاته الحقيقية سواء الكذب أو الفسق أو السرقة أو الزنا ويستعمل الألفاظ الجارحة فالنتيجة تكون التوبة والاستغفار، ولقد قال له الشيخ أبو مدين ذات يوم: « استر عباد الله ولا تفضحهم ». فقال له: « والله لو لا أنني مأمور ما

[1] - جامع كرامات الأولياء ، النبهاني ، ج2 ، ص 19-20.

[2] - أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص38.

فضحت أحدا ولسترت على الخلق »[1]، وكان لهذا الشيخ كرامات كثيرة ينشرها أينما ذهب، فكان الناس يرهبونه ويتهافتون عليه في آن واحد إذ كانت كراماته مصدر جاذبية ورهبة[2] ومما يروى عن كراماته أن الأسد كانت تأوي إليه، فشكا إليه الحطابون كثره الأسد في الغابة، فأمر خادمه بقوله : « معاشر الأسد يأمركم أبو يعزى أن ترحلوا من هذه الغابة فكانت الأسد ترى خارجه تحمل أشبالها حتى نفدت و لم ير فيها أسد بعد ذلك »[3].

وقال عنه الإمام الشعراني : « أبو يعزى المغربي انتهت إليه تربية الصادقين بالمغرب وأخذ عنه أكابر مشايخنا الأعلام ».

وقال المناوي، وابن عربي عنه : « وكان إذا سرق رجل أو شتم أو فعل محرما ثم دخل عليه يرى ذلك العضو الذي منه العمل مخططا تخطيطا أسود »، وممّا يروي الشيخ أبو مدين عن عجيب كراماته أنه زاره ذات مرة في الصحراء فوجد الأسد والطير حوله تشاوره ، وكان وقت غلاء ، فكان يقول إلى ذلك الوحش اذهب إلى مكان كذا وكذا فهناك قوتك ونفس الشيء بالنسبة للطير فتسمع الحيوانات كلامه وتنصاع لقوله.

ثم قال لأبي مدين : « يا شعيب إن هذه الوحوش والطيور أحبت جواري فتحملت ألم الجوع لأجلي رضي الله عنه »[4] ، ومما يروى عنه أنه إذا رآه أحد يعمى من نور وجهه وممن عمى عند رؤيته الشيخ أبو مدين نفسه ، فكان لا يبصر شيئا

---

[1] – أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص39.

[2] – المرجع نفسه ، ص 39.

[3] – جامع كرامات الأولياء ، النبهاني ، ج2 ، ص 526.

[4] – المرجع نفسه ، ص 526.

حتى مسح وجهه بثوب أبي يعزى فأصبح بصيرا، وكان أهل المغرب يستسقون به فيسقون[1].

هذا هو الشيخ أبو يعزى الذي تخرج عليه أبو مدين في السلوك و التربية المثمرة إذ يقول فيه:

« طالعت أخبار الصالحين في زمن (أويس القرني) إلى زماننا فما رأيت أعجب من أبي يعزي وطالعت كتب التذكير فما رأيت كالأحياء للغزالي »[2].

وكانت وفاته في شوال من عام أثنين وسبعين وخمس مائة (572)[3].

ج) **الشيخ عبد الله الدقاق** :

ومن الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الشيخ أبو مدين شعيب - رضي الله عنه - الشيخ الصالح أبو عبد الله الدقاق ، وكان من الصوفيين المشهورين، كان يقول أنا ولي أحد عنه الشيخ أبو مدين علم التصوف، وكان الدقاق إماما في ذلك الوقت، وفلتت منه يوما كلمة يشكو فيها ضيق حاله فرأى بعض أصحابه في النوم قائلا:

قـــل للرويجل من ذوي الأقـــــدار *** الفقـــر أفضل شيمة الأحـــرار

يـــا من شكا للنـــاس فعلـــه ربـــه *** هلّ شكـــوت تحمـــل الأوزار[4]

[1] - جامع كرامات الأولياء ، النبهاني ، ج2 ، ص 526.

[2] - المرجع نفسه ، ص 40.

[3] - الديوان ، ص 32

[4] - المرجع نفسه ، ص 23.

د) **الشيخ ابن غالب** :

هو أبو الحسين علي بن غالب من فقهاء فاس وقد قرأ عليه الشيخ أبو مدين "السنن" لأبي عيسى الترمذي في أحاديث النبي ﷺ ، وتفقه عليه ، توفي ابن غالب سنة تسعين وخمس مائة 590هـ. ويروي الدارسون لحياته أنّ الأولياء كانوا يحضرون مجلسه. ومما يُروى عنه أنّه كان إذا وجد صعوبة في حل مشكلة من المشاكل العلمية نظر إلى جهة من جهات البيت فيجدها مكتوبة في الجدار[1].

وهنا لا بأس من أن نشير إلى بعض أشياخ الشيخ سيدي بومدين وإن كانوا أقلّ شهرة من أشياخه الأوائل إلا أنّه كان لهم فضل كبير في رسم الطريق الصوفي الذي سلكه شيخنا أبو مدين ، ومن بينهم على سبيل المثال :

- الشيخ أبو زكريا يحي بن أبي الزواوي المدفون خارج بجاية كان عالما صالحا زاهدا (ولد عام اثنين وستة مائة 602 ووفاته كانت عام خمسة وثمانين وستة مائة 685هـ...)

كان يقرئ التفسير والحديث وكان كثير الخوف من الله عز وجل، كثير التخويف للناس يحذرهم جهنّم وعذابها وشرها، قال له الشيخ أبو مدين رضي الله عنه « لا تقنط الناس وذكرهم بأنعم الله تعالى فقال: لا أقدر إلاّ على هذا »[2].

---

[1] - الديوان ، ص23.

[2] - المرجع نفسه ، ص 24.

- الشيخ الصالح أبو جعفر محمد بن يوسف الصنهاجي كان مشهور الكرمات ومن كبار الصالحين.

- الشيح الصالح أبو تميم عبد الرحمن الهزميري، وكان حافظا للمسائل ، وقبره قريب من مكناسة ومن أخباره أنه كان يشفي مرضى البرص[1].

- الفقيه الصالح أبو عبد الله التاودي المقيم بفاس، كان يعلم القرآن ولكنّه كان يكتفي بأخذ الأجرة من أولاد الأغنياء ، ويعطيها لأولاد الفقراء، كان يخيط ثياب المعلمين، كانت وفاته عام ثمانين وخمسمائة 580 هـ[2].

- الشيخ الفقيه الصالح أبو الصبر أيوب بن عبد الله الفهري السبتي ، قرأ على الفقيه أبي الحسن علي بن غالب الذي قرأ عليه الشيخ أبو مدين بفاس ، ولأبي الصبر كتاب عرّف فيه بالشيخ المعروف بابن عربي صاحب كتاب "مواقع النجوم " في التصوف وغيرها من التآليف توفي في حدود الأربعين وستة مائة 640 هـ[3].

- الشيخ الصالح أبو محمد عبد الجليل النصري ، وكان كثير البكاء من عباد الله الصالحين الملازمين للعبادة والأناشيد ، منها قوله :

رجـــال الله قد سعـــدوا وفـــازوا *** ونـــالوا فضل رحمته وجـــازوا[4]

- الشيخ الشهير العالم المحدث الصالح الخطيب القاضي العدل أبو محمد عبد الحق بن عبد الرحمن الإشبيلي الحافظ صاحب الأحكام الكبرى والصغرى في

---

[1] - الديوان ، ص 26.

[2] - المرجع نفسه ، ص25.

[3] - المرجع نفسه ، ص26-27.

[4] - المرجع نفسه ، ص27.

الحديث والعاقبة، كانت ولادته عام ستة عشر وخمسمائة 516 هـ، ووفاته عام اثنين وثمانين وخمسمائة 582هـ، قبره ببجاية[1].

- الشيخ الصالح أبو علي حسين محمد الغافقي الصواف لازمه الشيخ أبو مدين ثلاثين سنة و لم يفارقه إلا بالموت كان من العباد، وله أخبار وأسرار وانتفع على يده، ونسب إليه كل فضيلة ظهرت في تلامذته.

- الشيخ الصالح أبو علي عمر الصباغ ، وكان صاحب مكاشفة وهو الذي قال صليت المغرب مع الشيخ أبي مدين فرأيت وأنا في الصلاة ثلاثا أو أربعا من الحور العين فلما سلمنا من الصلاة قلت للشيخ أبي مدين ما رأيت ، فقال وهل رأيتهن ؟ قلت : نعم، قال أعد صلاتك ، فإنّ المصلي إنّما يناجي ربه ، وأنت ناجيت الحور العين.

- الشيخ الصالح الوالي أبو عمران موسى الحلاج كان يحلج القطن بفاس، فلما شاعت عنه العجائب من المكاشفة والحديث بخفايا الأنوار خرج خائفا على نفسه ، وفرّ من المغرب إلى بجاية فقصد الشيخ أبا مدين فقال له الشيخ أبو مدين ، ما اسمك وهو يعرفه ؟ فقال موسى فقال له أبو مدين وأنا اسمي شعيب وقد آمنت فان موسى عليه السلام لم يأمن حتى لقي شعيبا[2].

و بعد إقامة طويلة بفاس من أجل العلم و المعرفة، و بعد تزويده بمختلف العلوم عن طريق شيوخه الأجلاء أمثال : ابن حرزهم، وابن غالب، وأبي عبد الله الدقاق السجلماسي الأصلي، تاقت نفسه لأداء فريضة الحج فغادر المغرب إلى

---

[1] - الديوان ، ص 28.

[2] - المرجع نفسه ، ص30.

المشرق بين عام 550 هـ/555 هـ (1155 م/1160 م)، و لما وصل الحجاز التقى بالشيخ عبد القادر الجيلالي أو الكيلاني، درس عنه علم الحديث وعلم التصوف، وتحصل منه على حرفة الصوفية، وعلى الأسرار الصوفية[1].

هـ) **الشيخ عبد القادر الجيلاني :**

هو عبد القادر بن أبي صالح موسى حنكي دوست بن عبد الله بن يحي الزاهد بن محمد بن دراود بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحضي بن الحسن المثني بن الحسن بن الإمام -رضي الله عنهم- و لد عام 470 هـ في جيلان[2].

كان الشيخ عبد القادر شديد الخشية، كثير الهيبة، مجاب الدعوة، كريم الأخلاق، بعيدا عن الفحشاء قريبا إلى الحق.

أما عن تكوينه العلمي، فقد قصد الشيوخ الأئمة لينهل من معارفهم، فدرس علوم القرآن الكريم، وتفقه على الشيوخ الوفاء على بن عقيل وأبي الخطاب محفوظ بن أحمد الكلوداني، وأبي الحسن محمد بن القاضي بن يعلي الفراء، وأبي سعد المبارك بن علي المخزومي.

كما درس الحديث على يد بعض الشيوخ بن حسن الباقلاني، بن خنيش، بن علي الرسي، بن المظفر التمار، السراح والكرجي، والأصفهاني. وقرأ الأدب على أبي زكرياء يحي على النتريني .

---

[1] - مدينة تلمسان ، يحي بوعزيز ، ص 80.

[2] - بهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الرباني الشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني ، ابن يوسف الشطنوفي ، دار القلم العربي ، ط1 ، سنة 1423هـ / 2003م ، ص 09.

وأخذ الخرقة الشريفة على يد شيخه ومرشده القاضي أبي سعد المبارك المخزومي. ولما نضجت علومه بدأ في نشرها بين طلبته، و أصبح إماما يرشدهم إلى طريق الله، كان يدرس بمدرسة (أستاذه المخزومي) الوعظ والفتاوى حتّى صارت مدرسته ملتقى لكل العلماء والفقهاء و الصالحين وصار هو قطب وقته، وما تزال مدرسته قائمة إلى الآن ببغداد[1].

وكان الشيخ عبد القادر يتكلّم ثلاثة عشر علما، ويدرس التفسير والحديث، والمذهب والخلاف وعلوم الحديث والنحو والأصول وكان يُقْرِئُ القرآن الكريم بمختلف قراءاته[2].

وكان يُعرف بفتاويه ، إذ كانت ترد عليه من بلاد العراق وغيره، كان يستند في ذلك إلى المذهب الشافعي ومذهب أحمد.

ومما يروى عنه أنه كان يقول : الإنس لهم مشايخ، والجن لهم مشايخ، والملائكة لهم مشايخ، وأنا شيخ الكلّ.

كما يذكر عنه أنّه قال لأصحابه : إنّه قد سُلّمت إلى العراق ، ثم بعد هذه قال لهم: قد كنت عهدت إليكم إني قد سلمت إلى العراق، والآن قد سلمت إلى الأرض وشرقها وغربها، وقفرها، و عمرانها، وبرّها وبحرها، وسهلها، وجبلها.

ويقول عنه أبو الحسن علي بن الهيتي الزيري : و لم يبت أحد من الأولياء في ذلك الوقت إلاّ وقد أتاه وسلم عليه احتراما للقطبية.

[1] – بهجة الأسرار ومعدن الأنوار ، الشطنوفي ، ص 14.

[2] – المرجع نفسه ، ص 15.

قال ابن الأخضر – رحمه الله – كنا ندخل على الشيخ عبد القادر في الشتاء وقوة برده، و عليه قميص واحد، وعلى رأسه طاقية والعرق يخرج من جسده وحوله من بروحه بمروحة كما يكون في شدة الحرّ[1].

ومنها أنّه مرّ به ثلاثة أحمال خمر للسلطان و معها صاحب الشرطة فقال لهم قفوا، فأبوا، فقال للدواب : قفي... فوقفت وأخذ من معها الأعوان الفولنج فأضجعوا، وتابوا فزال الألم و انقلب الخمر ففتحوها فإذا هي الخل[2].

وما يذكر عنه أنه مرّ على مجلسه حدأة فصاحت فشوشت على الحاضرين فقال : يا ريح خذي هذه الحدأة فوقعت لوقتها في ناحية ورأسها في ناحية، فنـــزل الشيخ عن الكرسي وأخذها بيده وأمر يده الأخرى عليها وقال : بسم الله الرحمان الرحيم فحييت وطارت[3].

وكراماته – رضي الله عنه– كثيرة جدا قد ثبتت بالتواتر وتناقلتها الأمة عند الأئمة من عصرنا إلى عصره. وقد ألفت فيه الكتب الكبيرة والكثيرة وقلائد الجواهر وغيره، وهي مطبوعة مشهورة، كانت وفاته رضي الله عنه 561 هـ.

ثقافته ومنـــزلته الصوفية :

بعد أن تحدثنا عن شيوخ أبي مدين شعيب وأثرهم في تكوينه الصوفي، الآن نتحدث عنه هو نفسه.

---

[1] – جامع كرامات الأولياء ، النبهاني ، ج2 ، ص 202.

[2] – المرجع نفسه ، ص 203.

[3] – المرجع نفسه ، ص 203.

لقد اطلع على مصادر أصيلة أهلته للارتقاء إلى مرتبة الشيخ ومن بينها القرآن الكريم، السنن، الأحياء، الرعاية، الرسالة القشيرية، كما درس الفقه، والتفسير، وكان إنسانا عابدا فاكتملت شخصيته الإسلامية المتكاملة ، وهكذا وصل إلى درجة المشيخة بفضل العزيمة الصادقة التي كانت تميزه، وبفصل توفيق الله سبحانه « وما توفيقي إلا بالله »[1].

وقد وفق الله سبحانه شيخنا للوصول إلى مرتبة تؤهله لكي يكون مرشدا وموجها وداعيا إلى الحق يقول سبحانه عن الدعاة : ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾[2] ، وهذه الصفة هي مغروسة فقط لمن غرف من الصوفية فأصبح عابدا متفرغا لله سبحانه، فهو يخشاه ولا يخشى غيره، إذ يقول تعـــالى: ﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾[3].

ومن خلال ما سلف ذكره، يظهر لنا أنّ الشيخ أبا مدين كان نابغا في العلوم الإسلامية، وبالرغم من تطور العلوم الكلامية والفقهية في عصر الموحدين وظهور مذاهبهم في بلاد المغرب فإنّ شيخنا لم يتأثر بهذه العلوم، بل كل اهتمامه مُنصبّ على العلوم الصوفية وقد شجعه في ذلك شيخه أبو يعزي الذي أوصله إلى مرتبة الصوفي وذلك بالصيام والصلاة والتقشف الشديد الذي لم يكن عائقا في وجه

[1] – أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص29.

[2] – سورة الأحزاب ، الآية 39.

[3] – سورة النحل ، الآية 125.

شيخنا، إذ لم يجد صعوبة في التخلص من هذا العالم ومن ملذاته الزائلة، فتنقل في كل المراتب الصوفية حتى بلغ مرتبة "القطب" و"الغوث"[1].

وهكذا اشتهر الشيخ أبو مدين بشيخ المشايخ، ويذكر أنه تخرج على يده ألف شيخ من الأولياء أولى الكرامات، فقد كان زاهدا، فاضلا ، عارفا بالله تعالى خاض بحار الأحوال ونال أسرار المعارف خصوصا مقام التوكل قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾ [2] ، وقال تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [3]. فالتوكل محله القلب، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب، بعدما تحقق العبد أن التقدير من قبل الله تعالى، وإن تعسر شيء فبتقديره، وإن اتفق شيء فبتيسيره[4].

وقد عرف الشيخ أبو علي الدقاق التوكل فقال : التوكل ثلاث درجات: التوكل ثم التسليم ثم التفويض، فالمتوكل يسكن إلى وعده، وصاحب التسليم يكتفي بعلمه، وصاحب التفويض يرضى بحكمه. ويقول التوكل بداية، والتسليم واسطة، والتفويض نهاية.

كما قال أيضا: التوكل صفة المؤمنين، والتسليم صفة الأولياء والتفويض صفة الموحدين، فالتوكل صفة العوام، والتسليم صفة الخواص، والتفويض صفة خواص

---

[1] – أبو مدين شعيب ، عبد الحليم محمود ، ص46.

– والقطبية والغوثية مقامات عند أهل التصوف لا غير يدركونها باجتهادهم وحزمهم وصفاء بواطنهم وكثرة تعبدهم وذكرهم الله تعالى.

[2] – سورة الطلاق ، الآية 3.

[3] – سورة المائدة ، الآية 23.

[4] – الرسالة القشيرية في علم التصوف ، القشيري ، المكتبة العصرية صيدا بيروت ط1 ، 1421هـ/2001م، ص162-163.

الخواص. وكان يقول: التوكل صفة الأنبياء، والتسليم صفة إبراهيم عليه السلام، والتفويض صفة نبينا محمد ﷺ[1].

قيل التوكل الثقة بما في يدي الله تعالى، واليأس عمّا في أيدي الناس.

وقيل التوكل فراغ السر عن التفكر في التقاضي في طلب الرزق.

سئل يحي بن معار: « متى يكون الرجل متوكلا؟ » فقال: « إذا رضي الله تعالى به وكيلا ».

وسئل ابن عطاء عن حقيقة التوكل فقال : « أن لا يظهر فيك انزعاج إلى الأسباب مع الشدة فاقتك إليها، ولا تزول عن حقيقة السكون إلى الحق مع وقوفك عليها ».

قال ذو النون المصري : « التوكل ترك تدبير النفس والانخلاع من الحول والقوة، وإنما يقوى العبد على التوكل إذا علم أن الحق سبحانه يعلم ويرى ما هو فيه »[2].

الفرق بين الزهد والتصوف :

الزهد في حقيقته لا يعني الانقطاع للعبادة وترك الحياة الدينية ، فالزاهد صاحب "نظرة خاصة للحياة " ، فهو يعيش كغيره ، إلاّ أنّ نظرته للأمور الدنيوية تختلف عن غيره ، فيجوز للزاهد إن يعمل وأن يكدّ ويكسب ، لكنّه لا يكون مشغولا بالمال ، وإنّما من أجل الله.

---

[1] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص166-167.

[2] – المصدر نفسه ، ص 164.

كذلك الصوفي يختلف عن غيره في أمر جوهري وهو التوجه إلى الله في كل أفعاله وأقواله ، يعمل في سبيله من أجله ، فيقوم بحاجاته الدنيوية من منطلق عبوديته لله « فالتصوف المستوى الأعلى ، فهو الإحسان الذي يتأتى سائر البشر ، ومن ثمّ فهو للخاصة ولا يستطيعه العامة »[1].

إذن « فالصوفية نزعة روحية عامة تقدمت الأديان السماوية المعروفة ثمّ عاصرتها مستقلة عنها ، ترمي إلى قهر الجسد وإذلاله ، فرض الحرمان عليه ، وتعزيز النفس ، وتحريرها من تحكم المادة لتستعيد نقاءها الأوّل وطهارتها ، وتسمو فوق مغريات الدنيا لتتصل بالله وتعرف الحق بالمكاشفة دون اللجوء إلى برهان عقلي... فتذوب في الوجود الحقيقي المطلق وتتحد به في هذه الحياة اتحادا تفنى معه كل رغبة شخصية»[2].

لقد كان الشيخ أبو مدين مبسوطا بالعلم، مقبوضا بالمراقبة، كثيرا الالتفات بقلبه إلى الله، إذ كان آخر كلامه: "الله الحق"، وكان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث، قال عنه عباس المرسي – من المتصوفين – « جلت في ملكوت الله فرأيت سيدي أبا مدين متعلقا بساق العرش فقلت له وما علومك ؟ وما مقامك ؟ فقال علومي (إحدى وسبعون) علما وأمّا مقامي فرابع الخلفاء ورأس السبعة أبدال » ، كان الشيخ أبو يعزى ممن يتبرك بثنائه لعظم حضرته وجلالة قدره ، بلغ من ورعه – رضي الله عنه – أنه كان لا يأكل البقلة المسماة ببقله الروم لذكر اسم الروم عليها ، وهذا تقدم كبير في باب التقوى ، وقد ظهر فيه صدق قول الرسول ﷺ : « يموت

[1] – التصوف في مصر والمغرب ، منال عبد المنعم جاد الله ، الناشر جلال حزي وشركاؤه ، ص 174.

[2] – دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية ، عبده الشمالي ، دار صادر ، بيروت ، ط 4 ، 1965 ، ص 442.

المرء على ما عاش عليه » إذ كان من قوله عند آخر الرمق "الله الحق" مثلما أشرنا إليه آنفا[1].

وكان الشيخ يقول : « مقامي مقام العبودية، وعلومي علوم الإلهية، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية، بها عمري وفكري، وهي غذاء لسري، فعلمي بالله متصل، فبالعلم بالله وذاته وصفاته نلت الجاه، ومعلومي هو الله، عظمته ملأت حقيقتي وسري ، ونوره أضاء به بري وبحري... فقلب العارف يسرح في الملكوت بلا شك ولا ارتياب، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب، فالجبال بقدرته سيرها، وبصنعه الجميل فكلامه العزيز لصدور أوليائه شفا »[2].

وهكذا يكون الولي سيدي بومدين وصل إلى مرتبة المشيخة ، وأصبح يلقب بالشيخ ، ورتبة المشيخة من أعلى الرتب في طريق الصوفية ، لأنّ الشيخ يحبب الله إلى عباده حقيقة ، إذ يسلك بالمريد طريق الاقتداء بالرسول ﷺ ، لقوله – عليه الصلاة والسلام– : « والذي نفس محمد بيده ، لئن شئتم لأقسمن لكم، إن أحب عباد الله تعالى إلى الله الذين يُحببون الله إلى عباده ، ويحببون عباد الله إلى الله ، ويمشون على الأرض بالنصيحة ».

ومن صح إقتداؤه وإتباعه أحبه الله تعالى قال الله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ ﴾[3] ، ووجه كونه يحبب عباد الله تعالى إليه، أنه يسلك بالمريد طريق التزكية، وإذا تزكت النفس انجلت مرآة القلب، وانعكست فيه أنوار

---

[1] – السعادة الأبدية ، عبد الحميد حميدو ، ص 64.

[2] – محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، ابن عربي ، ج2 ، دار صادر بيروت ، د.ت ، ص 136.

[3] – سورة آل عمران ، الآية 31.

العظمة الإلهية، فيحب العبد ربه وذلك ميراث التزكية، قال تعالى: ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾ [1] ، وفلاحها بالظفر بمعرفة الله تعالى إذا انجلت الدنيا بقبحها وحقيقتها، ولاحت الآخرة بكنهها وغايتها، فتتكشف حقيقة الدارين وحاصل المترلين، فيحب العبد الباقي ويزهد في الفاني، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة، فالشيخ من جنود الله تعالى يرشد به المريدين ويهدي به الضالين[2].

[1] - سورة الشمس ، الآية 9.

[2] - إحياء علوم الدين ، الغزالي ، دار المعرفة ، بيروت ، لبنان ، 1402هـ/1972م ، ص73.

3- آراء الآخرين فيه :

لقد تعدّدت الآراء و اختلفت في شخصية أبي مدين شعيب سواء لدى معاصريه، أم الذين أتوا من بعده، فالكلّ يمجّده ويضعه في رتبة عالية ومرموقة، فهو القطب ، وشيخ المشايخ ، والغوث إلى غير ذلك من الألقاب التي تليق بولي من أولياء الله كرّس كل حياته في خدمة الدين والتقرّب إلى الله، حتّى أفاض الله عليه من الكرامات ما لا يعدّ ولا يحصى وقلّما نجدها عند ولي آخر بلغ ورعه وتقواه منـــزلة الأنبياء والرّسل لما خصّه الله به من كرامات فائقة للعادة .

فالمؤلف أحمد بابا التنبكتي صاحب كتاب " نيل الابتهاج بتطريز الديباج " يقول فيه : « شعيب بن الحسن الأندلسي شيخ المشايخ سيدي بومدين سيد العارفين وقدوتهم الإمام المشهور»[1]، وهذا اعتراف بالإمامة والمشيخة والمعرفة الحقة.

وقال فيه ابن الخطيب القسنطيني : « كان من أفراد الرجال، ومن صدور الأولياء الأبدال جمع بين الشريعة والحقيقة، أقام هاديا وداعيا للحق، وقصدت زيارته من جميع الأقطار، واشتهر بشيخ المشايخ »[2].

[1] – نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، التنبكتي ، ص 193.

[2] – المرجع نفسه ، ص 193.

وقال أبو الصبر كبير المشايخ وقته : « كان أبو مدين زاهدا فاضلا عارفا بالله تعالى، خاض بحار الأحوال ونال أسرار المعارف خصوصا مقام التوكل، لا يشق غباره، ولا تجهل آثاره »[1].

وقال التادلي فيه: « كان مبسوطا بالقبض، مقبوضا بالمراقبة، كثير الالتفات بقلبه لربه، حتى مات وهو يقول في آخر زمانه : الله الحق. وكان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصا جامع الترمذي »[2].

وعن العارف عبد الرحيم المغربي قال : « سمعت أبا مدين يقول : أوقفني ربي عزّ وجلّ بين يديه، وقال له: يا شعيب ماذا عن يمينك؟ فقلت : يا رب عطاؤك، قال: وماذا عن شمالك؟. قلت: يا رب قضاؤك. وقال : يا شعيب قد ضاعفت لك هذا، وعفوت لك هذا فطوبى لمن رآك أو رأى من رآك »[3].

كما قال فيه الشيخ أبو عبد الله محمد التلمساني في كتابه- النجم الثاقب فيما لأولياء الله من المناقب — : « كان الشيخ سيدي أبو مدين فردا من أفراد الرجال وصدرا من صدور الأولياء الأبدال، جمع الله له علوم الشريعة و الحقيقة، و إقامة ركن الوجود، هاديا و داعيا للحق، فقصد بالزيارة من جميع الأقطار، و اشتهر بشيخ المشايخ »[4].

---

[1] - نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، التنبكتي ، ص 193.

[2] - المرجع نفسه ، ص 193.

[3] - المرجع نفسه ، ص 195.

[4] - نفح الطيب ، المقري ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، 1369هـ ، ص 343.

ذكر التادلي وغيره أن رجلا جاءه ليعترض عليه، فجلس في الحلقة... فالتفت للرجل، و قال له: لِمَ جئت؟ فقال: لأقتبس من نورك ، فقال له أبو مدين : ما الذي في كمك ؟ قال له: مصحف، فقال له: افتحه واقرأ في أول سطر يخرج لك. ففتحه وقرأ أول سطر فإذا فيه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [1]، فقال له أبو مدين: أما يكفيك هذا ؟ فاعترف الرجل وتاب[2].

كما ذكر صاحب الروض عن الشيخ الزاهد أبي محمد عبد الرزاق أحد خواص أصحابه قال: « مرّ شيخنا أبو مدين في بعض بلاد المغرب فرأى أسدا افترس حمارا وهو يأكله، وصاحبه جالس بالبعد في غاية الحاجة، والفقر، فجاء أبو مدين و أخذ بناصية (رأسه) الأسد، وقال لصاحب الحمار : أمسك الأسد واذهب به واستعمله في الخدمة موضع حمارك، فقال له الرجل: يا سيدي أخاف منه، فقال له : لا تخف لا يستطيع أن يؤذيك، فمر الرجل وهو يقود الأسد والناس ينظرون إليه فلما كان آخر النهار جاء الرجل ومعه الأسد وقال لأبي مدين : يا سيدي هذا الأسد يتبعني حيث ذهبت وأنا أخاف منه كثيرا لا أستطيع معاشرته فقال الشيخ للأسد: اذهب ولا تعد، ومتى آذيتم بني آدم سلطتهم عليكم »[3].

ومما ذكره تلميذه الصالح سيدي عبد الخالق التونسي أنه قال -يقصد الشيخ أبا مدين- : « سمعت برجل يسمى موسى الطيار يطير في الهواء ويمشي على الماء،

---

[1] - سورة الأعراف ، الآية 92.

[2] - نفح الطيب ، المقري ، ص 346 .

[3] - المرجع نفسه ، ص 347.

وكان رجل يأتيني عند الفجر فيسألني مسائل لا يفهمها الناس، فوقع ليلته في نفسي أنه موسى الطيار الذي سمعت به وطال عليّ الليل في انتظاره، فلما طلع الفجر نقر الباب رجل فإذا هو الذي يسألني فقلت له : أنت موسى الطيار؟ فقال : نعم، ثم سألني وانصرف، ثم جاء مع رجل آخر فقال لي صلينا الصبح ببغداد، وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الصبح، فأعدنا معهم وجلسنا حتّى صلينا الظهر، وأتينا القدس ووجدناهم في الظهر فقال لي صاحبي نعيد معهم ؟ فقلت: لا. فقال لي : ولم أعدنا الصبح بمكة ؟ فقلت كذلك كان شيخي يفعل، وبه أمرنا، فاختلفنا وأتيناك للجواب، فقال أبو مدين ، فقلت لهم : أمّا إعادة الصبح بمكة فلأنّها بها عين اليقين وببغداد علم اليقين، وعين اليقين أولى من علم اليقين، وصلاتكم الظهر بمكة فمكة هي أم القرى ، فلذلك لا تعاد غيرها ، قال فقنعنا به وانصرفنا »[1].

ومما قال فيه صاحب عنوان الدراية الغبريني : « سمعت أنه قرأ حتى انتهى إلى سورة "تبارك الذي بيده الملك" ، فظهرت له معالم العلى، وتجلى عن مواهب الله بأحسن الحلي، فكانت تلك السورة سورة منتهاه وغاية مرماه، أخبرني بعض المشيخة- رضي الله عنهم- أن الشيخين القاضيين أبا علي المسيلي وأبا محمد عبد الحق الأشبيلي سمعنا عنه أنه يأتي من العلم بفنون، وأنّه اطلع من أمر الله على سره المكفون ، مع أنّه لم ينته بالقراءة إلاّ إلى السورة المذكورة. فكانا يتعجبان، ويكادان يحيلان ما عنه يسمعان، فاتفق رأيهم على الإجتماع معه والإطلاع على ما عنده فسارا إليه إلى أحد مسجديه اللّذين كان يجلس فيهما مع بعض خواص أصحابه فوجداه منهمكا في معالجة المسائل، فجلسا إلى أن فرغ من كلامه، فسلما على

[1] - نفح الطيب ، المقري ، ص 347.

بعضهما البعض، و لم يكن قد رآهما الشيخ سيدي أبو مدين من قبل. فقال لهما : أما هذا فالفقيه أبو محمد عبد الحق ، وأما هذا فالفقيه أبو علي المسيلي. فقالا : نعم، فسألاه عن نهاية دراسته، وردّدا عليه أنّهما سمعا عنه أنه لمّا انتهى إلى سورة تبارك الذي بيده الملك، لم يزد عليها فأجابهما قائلا : نعم كانت سورتي فوجدتها سدرتي، ولو تعديتها لأحرقتني سبحات الوجه الكريم. ثم التفت إليهما مخاطبا بنـــزعة صوفية، مشيرا بيمينه ويساره وهو يقول : بي قل، وعليّ دل، فأنا الكلّ فانفصلا عنه» [1].

كما يقول صاحب عنوان الدراية عن الشيخ سيدي أبي مدين : « بأنه قد اطلع على كتاب فهرسة أبي عبد الله محمد بن عبد الحق التلمساني، بعد ذكره لفضل الشيخ أبي مدين وبعد وصفه بالأوصاف الحميدة، أنه قال ظهر فيه صدق قول الرسول ﷺ : (يموت المرء على ما عاش عليه ، إذا كان من قول عند آخر رمق: الله حي). قلت هذه الخاتمة حسنى ومرتبة عليا، رحمه الله توفي في نحو تسعين وخمسمائة» [2].

ومما يرويه دائما صاحب عنوان الدراية استنادا إلى بعض أصحابه أو الشيوخ : « أن بعض الطلبة وقع بينهم خلاف حول بعض الأحاديث النبوية وهو قوله ﷺ : (إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة) فتردد الكلام بينهم في أنّه إذا مات مؤمنان استحقا الجنة، و بقي الناس أجمع دون شيء فمضوا إلى مجلس الشيخ أبي مدين يسألونه في حلّ هذه المعضلة وأثناء وجودهم عنده كان في ذلك الوقت يطالع

[1] – عنوان الدراية ، الغبريني ، ص 57.

[2] – المرجع نفسه ، ص 61 .

الرسالة القشيرية، ترك ما كان يتحدث فيه، وقال : نُزِيلُ عن أصحابنا الإشكال ، ثم قال قول الرسول ﷺ : « إذا مات المؤمن أعطى نصف الجنة». فكان تفسير الشيخ المراد بنصف الجنة، جنته، وإذا كان بعد الحشر يعطي النصف الثاني من جنته، فبعد البعث تكمل له جنته، وفي القبر يعطى نصف جنته، وبيّن أنّ أرواح المؤمنين تسرح في الجنة، وفي يوم القيامة تنصل الأرواح بالأجساد، ويجتمع الجميع في الجنة وفي هذا من العلم ما لا ينتهي إلى حقيقته إلاّ أهل الصفا خاصة الأولياء، جعلها الله منهم[1].

وذكر صاحب الديوان سيدي العربي شوار التلمساني استنادا إلى كتاب الحقائق المضرية لأبي يزيد البسطامي أنه قال : « يظهر في آخر الزمان رجل يسمى شعيبا لا تدرك له نهاية وقال هو أبو مدين »[2].

وممّا ذكره صاحب البستان ابن مريم : « كان من أعلام العلماء وحفاظ الحديث خصوصا جامع الترمذي ، كان قائما عليه ، كان يلازم كتاب الأحياء ويعكف عليه وترد عليه الفتاوي في مذهب مالك فيجيب عنها في الوقت وله مجلس وعظ يتكلم فيه فيجتمع عليه الناس من كل جهة ، وتمرّ به الطيور فتقف لتسمع فربما مات بعضها ، وتخرج عليه جماعة كثيرة من العلماء والمحدثين وأرباب الأحوال وكان شيخه أبو يعزى يثني عليه ويخصّه بين أصحابه بالتعظيم و التبجيل »[3].

وقد ذكر عنه شيخه الفقيه الحافظ العلامة أبو الحسن بن غالب أنه قال: «كنت في أوّل أمري وقراءتي على الشيوخ إذا سمعت تفسير آية أو معنى

---

[1] – عنوان الدراية ، الغبريني ، ص 58 .

[2] – الديوان ، ص 11

[3] – البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، ابن مريم، ديوان الموضوعات الجامعية ، 01-86 ، الجزائر ص 108.

حديث قنعت به وانصرفت لموضع خال خارج فاس اتخذه مأوى للعمل فإذا خلوت فيه تأتيني غزالة تؤنسني، وكنت أمر في طريقي بكلاب القرى فيه فيدورون حولي ، فبينما أنا ذات يوم بفاس ، وإذا برجل من معارفي بالأندلس نزل ضيفا عليّ ، فبعتُ ثوبا بعشرة دراهم وذلك لأعطيهما للرجل الضيف لكنّني لم أجده ، فتركتها معي وخرجت على عادتي ، وإذا بالكلاب تعترض طريقي وتمنعني من المرور فخرج من صدّهم عنّي ، ولما وصلت لمكاني جاءتني الغزالة على عادتها ، فلما شمتني نفرت عنّي، فقلت ما أتى عليّ إلاّ من أجل هذه الدراهم الّتي معي فرميتها، ولما رجعت لفاس لقيت الأندلسي فدفعتها له ، فدار بي كلابها وجاءتني الغزالة فشمّتني من مفرقي إلى قدمي وأنست بي »[1].

وقال عنه صاحب السعادة الأبدية عبد الحميد حميدو التلمساني: « إنّه كان من أعلام العلماء وحفّاظ الحديث ».

وقال أبو العباس المرسي : « جلت في ملكوت الله فرأيت سيدي أبا مدين متعلقا بساق العرش وهو يومئذ رجل أشقر أزرق العينين فقلت له وما علومك؟ وما مقامك؟ فقال علومي واحد وسبعون علما، وأما مقامي فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال »[2].

وذكر صاحب الديباج أن أهل مجلس الشيخ -رحمه الله- اختلفوا هل الخضر وليّ أو نبيّ ، فرأى رجل منهم صالح في تلك الليلة معروف بالولاية النبي ﷺ فقال له: الخضر نبيّ ، وأبو مدين وليّ ". وهذا إن دلّ على شيء ، فإنّما يدلّ على مدى

[1] - البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان ، ابن مريم ، ص 109 .

[2] - المصدر نفسه ، ص 110 - 111

المرتبة العليا التي وصلها شيخنا أبو مدين ، إذ كاد يصل إلى مرتبة الأنبياء والرّسل ، وذلك لشدة ورعه وقوة إيمانه بالله وبرسوله.

وقال الشيخ العارف محي الدين أبو بكر بن العربي الهاشمي الطائي المعروف بابن سراقة أن الشيخ أبا مدين- رحمه الله تعالى- لم يمت حتّى تقطب قبل أن يُغَرْغر بثلاث ساعات[1]. والقطبية للعارف هي منتهى مناله.

وقال بعضهم – من الأولياء - رأيت النبي ﷺ في النوم معه أبو مدين و أبو حامد الغزالي- رضي الله عنه- فسأل أبو حامد الغزالي والشيخ أبا مدين بين يدي رسول الله ﷺ فقال له ما روح الروح ؟ فقال: أبو مدين المعرفة ، فقال له : وما روح المعرفة ؟ قال: اللّذة، قال فما روح اللّذة ؟ قال نظرة إليهم، فيغيثهم نور عظيم، فأخذتهم الملائكة فصعدت بهم حتى غابوا في الهواء[2].

وهذه الكلمات تبين مدى تقدير ابن عربي لأبي مدين، إذ يقول فيه: « شيخنا أبو مدين، من الثمانية عشرة نفسا الطاهرين بأمر الله لا يرون سوى الله في الأبواب».

وقال: وكان يقول لأصحابه (أي الشيخ سيدي أبو مدين): «أظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس بالمخالفة ، وأظهروا بما أعطاكم الله من نعمه

[1] - السعادة الأبدية ، عبد الحميد حميدو ، ص 64 .

[2] - المرجع نفسه ، ص 65.

الظاهرة- يعني خرق العوائد- والباطنية - يعني المعارف- فإنه تعالى يقول: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾»[1].

وقال في موضع آخر : « شيخنا أبو مدين – رضي الله عنه- الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق في كل شيء فكل حال عنده أعمال فتعلن بالصدقة كما يذكره في الملأ فإن من ذكره في الملأ فقد ذكره في نفسه ، فهذه حالة زائدة على الذكر النفسي لها مرتبة تفوق صاحب ذكر النفس، لا يطلع عليه في الحالين، فهو سرّ بكل وجه، فصدقة الإعلان تؤذن بالإقتداء الإلهي، فمن يخفيها أو يسترها فهو الظاهر في المظاهر الإمكانية، فهذه كانت طريقة شيخنا[2].

وقال العارف ابن عربي – رضي الله عنه-: كان شيخنا أبو مدين يقول : من علامة صدق المريد في إرادته فراره من الخلق، ومن علامة فراره وجوده للحق، ومن علامة صدق وجوده للحق رجوعه إلى الخالق، فهذا هو حال الوارث للنبيّ ﷺ فإنّه كان يخلو بغار حراء وينقطع إلى الله فيه، ويترك بيته وأهله ويفر إلى ربّه حتى فاجأه الحق، فبعثه الله رسولا مرشدا لعباده[3].

وأمّا صاحب الكواكب الدرية فيقول: « الأستاذ الأعظم العارف الأفخم، عظيم الأكابر، رأس الصوفية في وقته، و رئيسهم المشهور علم نعته زاهر، زاهد

[1] – أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص 124 .
[2] – المرجع نفسه ، ص 125.
[3] – المرجع نفسه ، ص 126.

مراقب مشاهد، يقصد و يزار من جميع الأقطار، اشتهر حتى ملأ الآفاق وصار إمام الصديقين وقته بلا شقاق، وأخذ عنه الكبراء كالعارف بن عربي رضي الله عنه »[1].

وللإمام الشعراني عدّة كلمات في تقدير أبي مدين حيث يقول : « الشيخ أبو مدين المغربي – رضي الله عنه- هو من أعيان مشايخ المغرب، وصدور المربيين وشهرته تعني عن تعريفه، و اسمه شعيب ».

ثم يردف قائلا : « وأجمعت المشايخ على تعظيمه وإجلاله وتأدبوا بين يديه». و«كان ظريفا جميلا متواضعا زاهد ورعا محققا مشتملا على كرم الأخلاق- رضي الله عنه- »[2].

وأمّا صاحب شذرات الذهب فإنّه يقول : « أبو مدين الأندلسي الزاهد العارف شيخ أهل المغرب شعيب بن الحسين، ساكن تلمسان ، وكان من أهل العمل و الاجتهاد، منقطع القرين في العبادة والنسك، بعيد الصيت ويسمّيه الشيخ محي الدين بن عربي بشيخ الشيوخ، نشر الله ذكره، وتخرّج عليه جماعة من الفضلاء كأبي عبد الله القرشي وغيره ، انتهى إليه كثير من العلماء والمحققين وفضلاء الصالحين كابن عربي وله في الحقائق كلام واسع »[3].

وقد كتب صاحب طبقات المالكية كلمات جميلة موجزة عن أبي مدين بقوله: « ولي الله أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي البجائي شيخ المشايخ، وسيد العارفين، وقدوة السالكين، شيخ الطريقة، جمع الله له علم الشريعة والحقيقة ».

---

[1] – أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص 128.

[2] – المرجع نفسه ، ص 128.

[3] – المرجع نفسه ، ص 128.

« كان من الفضلاء وأعلام العلماء ، ومن حفاظ الحديث فيجيب عنها في الوقت ومناقبه شهيرة، وكراماته كثيرة ».

« أخذ عن الحافظين أبي الحسن بن حرزهم ، وأبي الحسن بن غالب والشيخ أبي يعزى المتوفي سنة 572 هـ »[1].

قال فيه الإمام التادلي في "قلائد الجواهر " : « القدوة الشيخ أبو مدين شعيب المغربي ، كان من أعيان مشايخ المغرب ، وصدور المقربين ، وعظماء العارفين وأئمة المحققين، صاحب الكرامات ، الخوارق ، والأفعال الظاهرة ، والمقامات العلية... وهو أحد أوتاد المغرب... ، وهو أحد من أظهره الله تعالى إلى الوجود، صرّفه في العالم، ومكّنه من الأحوال، وملّكه من الأسرار، وأظهر على يديه العجائب، وأنطقه بفنون الحكم، واشتهر ذكره شرقا وغربا ، وأفتى ببلاد المغرب على مذهب الإمام مالك بن أنس -رضي الله عنه-[2] .

ونعته المرغيني : « بالقطب والأستاذ »[3].

وقال فيه الإمام الكبير "الشيخ ابن عربي" : « إنّ أبا مدين عبد صالح وإمام في التوحيد والتوكل »[4] ، ويقول في موضع آخر: « شيخنا أبو مدين -رضي الله عنه-

---

[1] - أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص 131.

[2] - العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، علوي ، ج1 ، ص 59.

[3] - عنوان التوفيق في أدب الطريق ، السكندري ، ص 14.

[4] - أبو مدين شعيب – حياته وأدبه ، حسين فارسي ، ص 87.

الغالب على قلبه وبصره مشاهدة الحق في كل شيء ، فكل حال عنده أعمال ، فتعلن بالصدقة... »[1].

ونعته أبو العباس العزفي « بالشيخ الصالح » ، واعتبره ابن باديس « من الصدور العارفين المقربين وعظماء العارفين ، وأصحاب الحقائق والمعارف والتمكين والتصريف وخرق العوائد » ، واعتبره الصومعي « من أكبر الأئمة قدرا وأفخمهم أمرا ، الشيخ العارف بالله ، الصديق الأكبر » ، ووصفه ابن القاضي بالشيخ « العارف الواصل المحقق القطب »[2].

قال فيه المقري : « هو بحر لا ساحل له » ، وحلاّه الأفراني بقوله : « قدوة العارفين، وقبلة السالكين ، وشيخ الشيوخ بالإجماع » ، ووصفه الناصري بقوله : « الشيخ العارف بالله تعالى » ، « وبالولي الكبير المشهور » ، وحلاه محمد جعفر الكتاني بقوله : «الشيخ الكامل ، المحقق الواصل، الشيخ الأعظم ، العارف ، الأفخم... رأس الصوفية الأماثل القطب، الغوث ، ولي الله تعالى »[3].

وقال فيه صاحب أنس الفقير وعزّ الحقير "ابن قنفذ القسنطيني" : « وأمّا كراماته وأحواله الصادقة والخير الصادق فكثير ، وبلغ رحمه الله من الورع مقاما عليا ونال من الزهد والتحقيق منالا سنّيا تبعه فيه المتقون واقتدى به المحققون ولازمه المصدقون ، وله أشياخ مشاهير ، وإخوان جماهير ، وأصحاب جواهير »[4].

---

[1] – أبو مدين شعيب – حياته وأدبه ، حسين فارسي ، ص 62.

[2] – عنوان التوفيق في أدب الطريق ، السكندري ، ص 13.

[3] – المرجع نفسه ، ص 14.

[4] – أنس الفقير وعز الحقير ، ابن قنفذ القسنطيني ، ص 19 – 20.

وقد ذكر أبو علي الصواف عن وفاته فقال : « كانت وفاة الشيخ في عام أربعة وتسعين وخمسمائة، وكان ذلك اليوم محفلا عظيما، ومشهدا جسيما ».

أما عن الضريح المبارك فيقول: « قبر الشيخ أبي مدين –بالعباد- معهود مشهور، وحوض للزائرين، رأيت من قبور الأولياء كثيرا، فما رأيت أنور من قبره، ولا أشرف ولا أطهر من سره، وليس الخبر كالعيان، والدعاء عنده مستجاب، قاله الأعيان ، وكان مما عاهد الله عند قبره، أنّ من وصله بأذى فلا يجاريه به »[1].

ويقول صاحب المقال الذي بدائرة المعارف الإسلامية عن أبي مدين :« وأمّا قبر الشيخ من بين هذه القبور فهو أنك إذا دخلت البيت فارجع عن يمينك مستقبلا، فالذي يقع على يسارك هو قبره، وهذا المكان عادة الداخل أن يتنقل فيه، وهو مكان مصلى واحد، فإذا انتقلت فاستند إلى الفقيه بانحراف وظهرك في ركن الجدار، وسلم حينئذ على الشيخ من غير تقبيل وقل جزاك الله خيرا على اجتهاد في نفسك، وفيمن تعلق بك من تلاميذك ورحمك ونفعك بعلمك وطاعتك ونفع بك، ثم تقرأ ما تيسر، وتذكر ما تيسر، ثم تدعو بما شئت، وإن تيسرت لك صدقة للضعفاء والمساكين الملازمين على الباب فادفعها، فإن كان أحد يريد الزيارة فخفف ، وإلاّ فاجلس »[2].

[1] – أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص 137.

[2] – المرجع نفسه ، ص 137.

وقد دفن أبو مدين في جموع حاشدة من أهل تلمسان، وكانت جنازته فرصة ليظهر أهل تلك المدينة فيها تقديرهم الكبير للصوفي، وصار أبو مدين منذ ذلك ولي تلمسان وحاميها[1].

وتحت هذا البيت وبجواره قبور كثيرة متزاحمة لالتماس بركة الشيخ أبي مدين –رضي الله عنه– وزاويته قريبة منه ولها أوقاف يجزى من ذلك على المنقطعين للعبادة، وبجواره جامع للخطبة ومدرسة للعلم ، والعباد منظر شريف وبقعة مباركة وطؤها الصالحون وسكانها متعبّدون[2].

[1] – أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص 137 – 138.

[2] – أنس الفقير وعز الحقير ، ابن قنفذ القسنطيني ، ص 106.

4- آثاره :

ترك الشيخ أبو مدين مصنفات نثرية قليلة جدا وذلك بالرغم من شهرته وسعة علمه وخصوبة أفكاره ، ومعرفته الواسعة في المذاهب الفقهية ، حتّى لُقّب بالقطب وشيخ المشايخ والإمام والفقيه ، ولعلّ السبب الرئيسي في ذلك هو كون الشيخ رجل دعوة وإرشاد وليس أديبا ، كما كان تلميذه ابن عربي ، فقد أمضى شطرا كبيرا من حياته في الدعوة والإرشاد وتأهيل الطلبة ، إذ تخرج على يده ألف شيخ ، إذن فلا غرو إن لم يسلك طريق التأليف الأدبي ، بالرغم من أنّه أهل لذلك ، لما تتوفر فيه من مزايا علمية ومعرفية خصبة وكثيرة. فعدد مؤلفاته قليلة، وأكثرها لا يزال عبارة عن مخطوطات لم يتمّ التحقيق فيها بعد، ومن بين هذه المصنفات:

1- أنس الوحيد ونزهة المريد في علم التوحيد : ذكره حاجي خليفة ، وإسماعيل البغدادي، وقد شرحه شهاب الدين أحمد بن عبد القادر المعروف بباعشن وسماه "البيان والمزيد المشتمل على معاني التنـــزيه وحقائق التوحيد"[1]. وقد قام بشرحه العلامة "شمس الدين بن هلال الدمشقي ، المتوفى سنة 1004هـ في مؤلف بعنـــوان "فتح الملك المجيد في شرح رسالة أنس الوحيد" ويحتوي هذا الكتاب على حكم الشيخ أبي مدين وبعض أشعاره الصوفية[2].

[1] – عنوان التوفيق في أدب الطريق ، السكندري ، ص 23.

[2] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 28.

وقد ذكر المستشرق " بروكلمان " في " كتابه تاريخ الأدب العربي " وجود مخطوطات من بينها: مخطوطة بمكتبة برلين بعنوان حكم ، ونسخة بالمكتبة الوطنية بباريس ، ونسختين بمكتبة الاسكريال بمدريد ، ونسخة بمكتبة القاهرة[1].

2- مفاتيح الغيب لإزالة الريب وستر العيب ، ذكره الزركلي في الأعلام ، وتوجد مخطوطة في شستربتي[2].

3- تقييد في التصوف وآداب خدمة الشيخ ، مخطوط محفوظ في مكتبة عبد الله قـــنون بطنجة ، يقع في أربع ورقات[3].

4- تحفة الأريب ونزهة المريد ، أورده "ألفريد بيل" ضمن مراجعة في كتابه " الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي" ، ترجمة عبد الرحمان بدوي[4].

5- رسالة في التصوف ، توجد نسخة منه مخطوطة بدار الكتب الظاهرية ، وقد كتب هذه الرسالة إلى الشيخ الصالح أبي محمد عبد العزيز جوابا عن رسالة منه كان قد بعث بها إليه ، فقال : « أمّا بعد فإنّه من اتقى الله سبحانه وقاه ، ومن توكل عليه حق التوكل كفاه ، ومن استعاذ به نجاه ، ومن شكره والاه ، ومن أقرضه جازاه ، واجعل التقوى عماد قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنّه لا عمل لمن لا نية له ، ولا أجر لمن لا خشية له »[5].

---

[1] – أبو مدين شعيب ، حسين فارسي ، ص151.

[2] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 29.

[3] – المرجع نفسه ، ص 29.

[4] – المرجع نفسه ، ص 29.

[5] – من أعلام تلمسان مقاربة تاريخية فنية ، د. محمد مرتاض ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، ص 32.

6- عقيدة أبي مدين : توجد مخطوطة بالمكتبة الوطنية بباريس ، ويعالج فيهـــا الشيخ أبو مدين العقيدة الإسلامية الصحيحة الّتي تؤمن بالتوحيد والذات الإلهية.

أمّا فانست ج .كرنال فقد أشار إلى وجود مخطوطة في المكتبة الوطنية بمدريد[1].

7- خطبة وعظية : نقلها عبد الله قـــنون في النبوغ المغربي. يقول فيها : « عباد الله لئن كانت ذنوبنا كثيرة ومساوئنا خطيرة وسيئاتنا أربت عن الحصي وموبقاتنا حلّت عن العدّ والإحصاء ولئن قلّت في الصالحات أعمالنا وطالت في الخبائث آمالنا واتبعنا هوانا فظهرت منّا القبائح... فرحمة ربّي تسع الجميع وفضل مولانا وافر يعمّ العاصي من خلقه والمطيع »[2].

8- حكايات في التوحيد : له مؤلف بعنوان " حكايات في التوحيد " : وقد أبرز آراءه في المعرفة والتوحيد ، وقد نقل هذه الحكايات تلميذه عبد الله بن الأستاذ المزوزي ، وقام بنسخها الحاج إبراهيم خليفة والنسخة الخطية موجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة[3].

9- بداية المريد: وفيه يبيّن صفات شيخ الطريقة الصوفية وخصال وأعمال المريد.

وقد قسم الشيخ أبو مدين كتابه " بداية المريد " إلى أبواب مرتبة على النحو التالي:

---

[1] - أبو مدين شعيب ، حسين فارسي ، ص 157.

[2] - باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، شاوش الحاج محمد بن رمضان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995م ، 465.

[3] - أبو مدين شعيب ، حسين فارسي ، ص 158.

- باب في السماع وحقيقته.
- باب لباس المرقعة والشهرية والفرجية.
- باب في خدمة المشايخ.
- باب في التوبة.

وقد اهتمّ بهذا المخطط " فانست كرنال " إذ قام بترجمته إلى اللّغة الإنجليزية ، وقد عثر على هذا المخطط ، أثناء ترجمته ، في المكتبة العامة بالرباط ، كما يشير إلى أنّ هذا المخطوط موجود ضمن رسالة التصوف في المكتبة العامة بالرباط ، وفي مخطوط آخر بالزاوية الحمزاوية ، وقد قام بدراسة هذا المخطوط الصوفي الجليل الشيخ أبو محمد صالح بن ينصارن المقري[1].

10- حزب أو حرز أبي مدين شعيب : توجد منه نسختان مخطوطتان ، إحداهما محفوظة في مكتبة بايزيد بإسطنبول ، والأخرى محفوظة في المكتبة السليمانية بإسطنبول[2]، وهناك من يذكر أنّ له حزبا واحدا يقع في خمس صفحات ، وهذا الحزب موجود في مخطوط جمع عدّة أحزاب لصوفية آخرين[3].

11- وصية : مذكورة في دائرة المعارف الإسلامية[4].

ومما تجدر الإشارة إليه أنّ بعضهم تناولوا هذه الكتب بالشرح وخاصة كتابي "أنس الوحيد ونزهة المريد في التوحيد " ، وكتاب " عقيدة ".

---

[1] – أبو مدين شعيب ، حسين فارسي ، ص 156.

[2] – عنوان التوفيق في أدب الطريق ، السكندري ، ص 24.

[3] – أبو مدين شعيب ، حسين فارسي ، ص 158.

[4] – عنوان التوفيق في أدب الطريق ، السكندري ، ص 26.

وقام بشرح كتاب "أنس الوحيد ونزهة المريد في التوحيد " البيومي في كتاب سماه " الأسرار الخفية الموصلة إلى الحضرة العلية "، وهي مخطوطة موجودة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، يقول في مستهله « الحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم وبعد ، فيقول العبد الفقير إلى الله تعالى علي البيومي الشافعي مذهبا ، « هذا شرح لطيف لحكم العارف بالله تعالى سيدي شعيب أبي مدين التلمساني، وسميته بالأسرار الخفية إلى الحضرة العلية »[1].

ويوجد هذا الشرح في نسخة خطية بمكتبة معهد "جوتة" ، وفي نسختين خطيتين بدار الكتب المصرية بالقاهرة.

كما قام بشرح هذا الكتاب " ابن علان شهاب الدين بن إبراهيم " في كتاب سماه " شرح حكم أبي مدين " ، يقول في مقدمة الكتاب: « ربّنا ولا تحملنا ما لا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين »، «اللّهم اجعل ظاهرنا مزينا بالشريعة وباطننا محلى بالطريقة كي تشرق علينا أنوار الحقيقة ».

وقام بكتابة هذا الشرح محمد جاد القماش الأشهوني المالكي ، لكن هذا الشرح لم يطبع حتّى الآن ، وتوجد مخطوطة بالمكتبة الأزهرية بالقاهرة ، وأخرى بدار الكتب المصرية بالقاهرة[2].

وقد قام بشرح هذا المصنف أحمد محمّد بن عبد القادر المعروف " بباعشن " في كتاب سماه " البيان والمزيد المشتمل على عقائد التتريه وحقائق التوحيد " ،

---

[1] – أبو مدين شعيب ، حسين فارسي ، ص 160.

[2] – المرجع نفسه ، ص 161.

ويستهل هذا الكتاب بقوله : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله العلية ذاته ، المجيدة صفاته، القديمة أسماؤه وآياته ، الظاهرة أفعاله ، الباهرة أنواره ، المتصرفة أقداره ، الممكنة معانيه ، لما خلق من مبانيه ، فسبحان من لا أرض ولا سماء تكتنفه وتحويه ، ولا عطلت منه كما هو في كل ولا شيء من الأشياء فيه »[1].

أمّا كتاب " عقيدة " للشيخ أبي مدين ، فقام بشرحه شمس الدين محمد بن أبي اللّطف عام 957هـ/1550م وسماه " العقد الثمين في شرح عقيدة العارف أبي مدين " وقد تولى تدوين هذا الشرح أحمد بن السّيد محمد الحسني المقدسي سنة 1087م ، و لم يطبع هذا الشرح ، ولكن توجد مخطوطة بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، يقول الشيخ في بداية هذه المخطوطة : « الحمد لله الذي أسس عقائد أوليائه على أثبت قواعد ، وقدس معاقد أصفيائه عن قول حاد »[2].

كما قام بشرح هذا الكتاب الشيخ عبد الغني إسماعيل النابلسي وسماه " القول الآبين في شرح عقيدة أبي مدين " وتوجد مخطوطة لهذا الشرح بدار الكتب المصرية بالقاهرة ، ويستهل قوله : « الحمد لله الذي خلق عبيده لأجل معرفته وتوحيده ، وليفرقوا بين وجودهم ووجوده ، ويعلموا مزية إنعامه وجوده ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه »[3]. كما يوجد هذا الشرح في مخطوطة بالمكتبة الظاهرية بدمشق ، وتوجد نسخة خطية أخرى بمكتبة هايدلبرج وفي نسخة خطية أخرى بمكتبة الإسكندرية.

---

[1] – البيان والمزيد المشتمل على معاني التنـــزيه وحقائق التوحيد على أنس الوحيد ونزهة المريد ، أحمد بن عبد القادر باعشن ، تحقيق المزيدي ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 2005 ، ص 2.

[2] – أبو مدين شعيب ، حسين فارسي ، ص 163.

[3] – المرجع نفسه ، ص 163.

والملاحظ أنّ معظم هذه المخطوطات النثرية لم يتمّ شرحها والتحقيق فيها بالرغم من نفاستها وقيمتها العلمية الرفيعة بدليل أنّ هناك باحثين أجانب اهتموا بهذا الجانب أي الجانب الصوفي "كبروكلمان " و"فانست كرنال " ، إذن فعلى الباحثين العرب القيام بالمبادرة وبالتنقيب والبحث والتحقيق والشرح والبحث عن آثار أبي مدين شعيب ، لأنّه أكيد توجد مخطوطات غير هاته الّتي ذكرناها ، فله مخطوطات نادرة لم تحقق بعد ، إذن فعلى الباحثين أن يهتموا بالتراث الصوفي للشيخ أبي مدين والاعتناء بها ، وذلك بجمعها في كتاب موحد تضم جميع مؤلفاته ومصنفاته سواء النثرية أو الشعرية حتّى لا تبقى كالدرر المتناثرة ، وذلك من أجل تدعيم مكتبتنا العربية والّتي بدون شك سوف تعمل على رقي الحضارة العربية الإسلامية.

أقواله في التوحيد :

ما يعرف به الشيخ أبو مدين هو التوحيد أو مذهبه المتمثل أساسا في " الفناء في التوحيد " وذلك لما امتاز به من مواهب قدسية أهلته لتبوّئ درجة القطبية ، والغوث والمشيحة ، وهذه المواهب تحمل في طياتها دلالات توحيدية ، وأسرارا إلهية خصها الله الشيخ أبا مدين دون سواه ، وقد جمع لنا الشيخ أو تلميذه ابن عربي في بعض مؤلفاته أقواله وكلامه تناقلها بعض المريدين والفقراء أو أصحابه ، وآثرنا إيرادها لسببين :

السبب الأوّل : معرفة مؤلفات ومصنفات الشيخ أبي مدين النثرية معرفة دقيقة.

السبب الثاني : قيمتها.

سئل عن التوحيد فقال : « التوحيد الحُكم بأنّ الشيء واحد والعلم بأنّه واحد ، وفي اصطلاح أهل الحقيقة تجريد الذات الإلهية عن كل ما يتصور في الإفهام ويتخيل في الأوهام والأذهان – التوحيد همتي ، وهو شريعتي وسنتي ، التوحيد هو الغاية القصوى ، والملجأ والمأوى، هو الأساس الذي قام به الوجود، وعليه فطرة كل مولود، لكن الناس فيه على مراتب، فمنهم القريب ، ومنهم الصّاحب، فالمرتبة العليا هي الترقي من الأسماء والصفات إلى توحيد الذات، هنالك أفنيت عمري، وأتعبت خاطري وفكري إلى أن نلت منه المعنى، ولاحظت ذلك الجمال الأسنى وذلك من الله سبحانه ابتداء وانتهاء ﴿ مَا يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِن رَّحْمَةٍ فَلَا مُمْسِكَ لَهَا ﴾ [1] »[2].

وسئل عن الوصول ، فقال : إذا دلّك به عليه كنت منه وإليه ، وإذا أفناك عن الإحساس كنت في حضرة الإيناس (ضد الإيحاش أي الوحشة) وإذا كاشفك بحبه لم تتلذذ إلاّ بقربه ، وإذا غيبك عن شهودك تجلى لك من وجودك[3].

رأى بعض الفقراء في الواقعة أبا مدين وأبا حامد الغزالي ، فسأل أبو حامد الشيخ أبا مدين عن سرّ معرفته ومحبته ، فقال له أبو مدين المحبة مركبي ، والمعرفة مذهبي والتوحيد وصولي ، للمحبة سرّ لا ينكشف ، وإدراكات لا يعبّر عنها ، ولا يوصف سرّها ، ومنبعها وفي ، وأصلها الجود العلي ، فهي للخواص سنة مسنونة ،

---

[1] – سورة فاطر ، الآية 2.

[2] – محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، ابن عربي ، ج2 ، ص 257.

[3] – المرجع نفسه ، ص 54.

دلّ على ذلك قوله تعالى : ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾ [1]. فالمعرفة فخري، والمعرفة هي معرفة الله تعالى حق معرفته، وهي قاعدة سري وأمري، ثمرتها التوحيد...[2].

ثمّ سئل عن التنـــزيه فقال : « نزّهت (أي أُبعدت عنه كل ما لا يليق به سبحانه وتعالى مع إطلاق التعظيم) الحق بما نزّه به نفسه ، وحمدته حمد من به قدّسه، ومجّدته تمجيد من كان معناه وحسّه ، فهو المحرك للظواهر ومعلن العلانية ، ومسرّ السرائر ، فسرّه لسرّي لاح وتحفة تغمرني في المساء والصباح ، إن نظرته وجدته معي ، وإن تحققته كان بصري ومسمعي ، فهو الممد لوجودي ، ومقلب قلبي ، وناصر وجودي ، فحياتي بحياته ظاهرة ، وصفاتي بصفاته مطهرة ، وخُلقي بأخلاقه متخلقة ، أمدّني بتوحيده ، وملأ ظاهري وباطني بجلاله وتمجيده ، ثمّ قال يا واحد يا أحد يا فرد يا صمد يا من لم يلد ولم يولد جمّل ناظري بالنظر إليك غدا»[3].

قال بعض الصالحين: رأيت في الواقعة أبا مدين وجماعة من الصوفية فقالوا للشيخ: زدنا في التوحيد شيئا ؟ فقال : التوحيد هو النور الذي منه مادة كل نور ، وما عداه فأغشية وستور ، هو الساتر والمستور ، وهو الأصل في كل الأمور ، مادته لكل زائد وناقص ، وما تفرّق في الوجود فهو عنده واحد... وكل ما سوى الحق

---

[1] – سورة المائدة ، الآية 54.

[2] – محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، ابن عربي ، ج1 ، ص 326.

[3] – المرجع نفسه ، ص 326 – 327.

عنه مرفوض ، ركن إلى الحصن المنيع فآواه ، ودق نظره في معرفته فتمعنّه بمعناه ، فنودي من حضرة مولاه : « وحّدني فإنّي أنا الله »[1].

رأى بعض الفقراء في الواقعة الشيخ أبا مدين ، وبعض الصوفية ، فسأله عن همّته، فقال: « همّتي به متعلقة ، وحقيقتي بنور جلاله مشرقة ، حضرته موضع أنسي، وملاحظة جماله عمرت حسي ، فالمحسوسات متحركة بأمر الأمراء ، والأمر صادر عن حكم القادر ، فأحكامه سبحانه جارية على وفق سابقته في خلقه ، على حكم ما قدره في الأزل.... »[2].

قال بعض المريدين في الواقعة : رأيت أبا مدين وجماعة من الصوفية ، فقالوا لأبي مدين : تكلّم لنا في شيء من التوحيد ، فقال : التوحيد هو الحق ، وإليه الملجأ لأهله ، وبه النجاة ، هو السرّ الخفي ، به ظهرت الأسرار ، وهو الشمس المشرقة ، ومنه ينابيع الأنوار ، وهو قطب العارفين ، وهو الدليل ، ومبرئ الأسقام ، وشفاء كل عليل ، هو الظاهر فما سواه حجابه ، فمن كان ذا بصر جاوز أبوابه ، كشف له عن ملكه ، فعاين سلطانه ، وعيّنه به عنه ، فعظم شأنه ...امتاز به عن سائر الخلق ، فواصلته وأجلسته في حضرته الحق ، أخصصته بالعلوم الأزلية العجيبة[3].

رأى بعض المريدين في واقعته الشيخ أبا مدين ، وقد استوي في الهواء ومعه أبو حامد الغزالي ، فقال الشيخ : يا أبا حامد السر بالله ناظر ، والروح يتلفق منه الأوامر ، والقلب للسكينة والساكن ، والعقل حكم حاكم ، والنفس تحت قهر

---

[1] – محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، ابن عربي ، ج1 ، ص 157 – 158.

[2] – المرجع نفسه ، ص 393.

[3] – المرجع نفسه ، ص 171.

القاهر ، والحق به ظهر الوجود وهو الواحد المعبود ، (أي سورة الفاتحة). ثمّ قال يا أبا حامد إذا تلاشت المعاني فاقرأ السبع المثاني ، فإنّك تراه كما لم يزل وأنت كما لم تكن... فقال أبو حامد لأبي مدين : كيف مادة الله للسر ؟ فقال له الشيخ : اسمع إن نظرت به وجدتهما معا لم يفترقا و لم يجتمعا ، ثمّ قال له : فالسر ما هو ، فقال : هو خزانة النظر ، قال له : والروح، قال : هو خزانة النظر ، قال له : والقلب ، قال: هو خزانة الفكر ، قال : والعقل ، قال : هو خزانة العدل والعلم ، قال : والنفس، فقال : هو خزانة الأرض ، ثمّ قال الشيخ : يا أبا حامد على هذا صنعه ، وكل مفترق جمعه[1].

هذه بعض أقواله في التوحيد ، فكلّها كلام صوفي ، عميق المعنى لا يفهمه إلاّ من خاض بحر التصوف ، لأنّ التصوف له مصطلحات خاصة به ، ولا يفهمها إلاّ أصحابها، فهذا يدل على مقام القطبية الذي وصل إليها بفضل اجتهاده وتفرغه الكامل لعبادة الله ، فكان يدعو إلى ترك الحرفة الّتي يرتزق بها الناس والتفرغ لعبادة الله ، فقيل له : لم لا تحترف والأكل من الكسب ، فقال : « الضيف عندكم إذا نزل بقوم وعزم على الإقامة كم توقيت زمان وجوب ضيافته عليهم ؟ قالوا : ثلاثة أيام ، قال : وبعد الثلاثة أيام ، قالوا : يحترف ولا يقعد عندهم حتّى لا يحرجهم ، فقال لهم : لو أنّ الضيف في تلك الأيام الّتي نزل فيها ضيفا أكل من كسبه أليس هذا عار ، قالوا : نعم ، فقال الشيخ : الله أكبر أنصفونا ، إنّ أهل الله رحلوا عن الخلق ونزلوا بالله أضيافا عنده، فهم في ضيافة الله ، فنحن أضياف ربنا تبارك وتعالى،

[1] – محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، ابن عربي ، ج1 ، ص 300 – 301.

نزلنا عليه في حضرته على وجه الإقامة عنده إلى الأبد فتعيّنت الضيافة ، ثمّ قال : وأيام ربنا كما قال تعـــالى : ﴿ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ [1] » [2] .

فما أعظم نفس الشيخ أبي مدين، وما أنورها لما اتصفت من إيمان عميق وحب إلهي ، فاليوم بألف سنة ، فالإنسان يموت ، وتبقى أيامه عنه الله من الضيافة ، إذن فلا داعي للجري وراء الكسب والعمل ، لقوله تعالى: ﴿ فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ﴾ [3]. فإذا فرغت من الأكوان "فانصب" قلبك لمشاهدة الرحمن «وإلى ربك فارغب » في الدوام، وإذا دخلت في العبادة فلا تحدث نفسك بالخروج منها، وقال: ﴿ يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ ﴾ [4]. وفهمه من قوله تعالى : ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ ، وكان يقول إذا سمع من يتلـــو هذه الآيـــة ﴿ وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً ﴾ [5] ، القليل الذي أعطيناه ما هو لنا بل هو معار عندنا والكثير منه لم نصل إليه، فنحن الجاهلون على الدوام[6].

وشرحه لقوله : « أطعمونا لحما طريا » كان الشيخ أبو مدين إذا قيل له قال فلان عن فلان يقول : ما نريد أن نأكل قديدا ائتوني بلحم طري ، وفي رواية :

---

[1] – سورة الحج ، الآية 47.

[2] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 97.

[3] – سورة الشرح ، الآيتان 7-8.

[4] – سورة الحاقة ، الآية 27.

[5] – سورة الإسراء ، الآية 85

[6] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1، ص 100.

« أطعمونا لحما طريا » ، كما قال تعالى : ﴿ لِتَأْكُلُواْ مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا ﴾ [1] ، أي لا تطعمونا قديدا ، أي لا تنقلوا عن غيركم ، وهذا من أجل خلق جوّ المنافسة بين أصحابه ، وذلك بالاعتماد على أنفسهم لطلب الأخذ عن الله ، فكان يقول -رضي الله عنه- : أتركوا فلانا وفلانا فإنّ والله أولئك أكلوه لحما طريا ، والواهب لم يمت، وهو أقرب إليكم من حبل الوريد والفيض الإلهي ما سدّ بابها وهي من أجزاء النبوة ، يقول تعالى : ﴿ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ﴾ [2]، أي فالله معنا.

كان أبو مدين يقول لأصحابه : ﴿ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ ﴾[3]، وكان يقول لأصحابه « أعلنوا الطاعة لله حتّى تكون كلمة الله هي العليا كما يعلن هؤلاء بالمعاصي والمخالفات والمنكرات ولا يستحون من الله ». وفي رواية[4] «أظهروا للناس ما عندكم من الموافقة كما يظهر الناس بالمخالفة ، فأظهروا بما أعطاكم الله من نعمه الظاهرة - يعني خرق العوائد - والباطنية - يعني المعارف[4]-» فإنّ الله يقول : ﴿ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ [5].

---

[1] - سورة النحل، الآية 14.

[2] - سورة المجادلة ، الآية 7.

[3] - سورة الأنعام ، الآية 91.

[4] - العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، لمحمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 102.

[5] - سورة الضحى ، الآية 11.

الفصل الثاني

نثر أبي مدين شعيب

1- كراماته :

هي أفعال فوق الطبيعة يؤيد الله بها الأولياء لتكون آية تقويم من مقام القدسية، ولا تسمى معجزات، لأن المعجزة تكون للأنبياء فقط، يقول سهل التستري : « الآيات لله، والمعجزات للأنبياء، والكرامات للأولياء، والمغوثات للمريدين، والتمكين لأهل الخصوص »[1].

ومن هنا نقف عند مفهوم الكرامة والفرق بينها وبين المعجزة.

تعريف الكرامة :

الاسم من كرم والجمع كرامات ، وهي ما يكرم الرب تبارك وتعالى به عباده من أنواع الافضالات ، وهي عامة وخاصة ، فالعامة هي ما كرم الله بني آدم ، وفضلهم على غيرهم من هذه المخلوقات الأرضية ، ومن ذلك اعتدال القامة ، الخلق في أحسن تقويم، والعقل ، والمنطق ، وتدبير المعاش وإصلاحه ، وتسخير الكون لهم ، والانتفاع به إلى غير ذلك من الأفضال والأنعام ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً ﴾[2].

---

[1] - الرسالة القشيرية ، القشيري ، المكتبة العصرية ، بيروت ، ط1 ، سنة 1461 هـ / 2001 م ، ص 160.

[2] - سورة الإسراء ، الآية 70.

ويقول الجرجاني : « الكرامة هي ظهور أمر خارق للعادة من قبل شخص غير مقارن لدعوى النبوة فما لا يكون مقرونا بالإيمان والعمل الصالح يكون استدراجا وما يكون مقرونا بدعوى النبوة يكون معجزة »[1].

ثم يعرف المعجزة بأنها، أمر خارق للعادة داعية إلى الخير والسعادة مقرونة بدعوى النبوة قصد بها إظهار صدق من ادعى أنه رسول من الله[2].

والخاصة وهي أفضلها : وهي ما يكرم الله به بعض عباده من هدايتهم إلى الإيمان، وتوفيقهم إلى طاعته بفعل المأمورات، وترك المنهيات أي طاعة الله وحده لا شريك له ، فهذه الفضائل تعدمن أفضل الكرامات وأهلها هم أصحاب اليمين المذكورون في قولـــه تعـــالى : ﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ﴾[3]، إذ يقول تعالى: ﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ * فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴾[4].

وهم المقتصدون المذكورون في قوله تعـــالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾[5].

---

[1] – التعريفات ، الجرجاني علي بن محمد ، ضبطه وفهرسه محمد بن عبد الحكيم القاضي، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ط1 ، القاهرة ، بيروت ، 1411هـ/1991م ، ص93.

[2] – عقيدة المؤمن ، أبو بكر الجزائري ، دار الشروق جدة ط 3 ، سنة 1402 هـ/ 1982م ص177.

[3] – سورة الواقعة ، الآية 27.

[4] – سورة الواقعة ، الآيتان 90 – 91.

[5] – سورة فاطر ، الآيتان ، 32 – 33.

وهؤلاء هم المبشرون بالجنة[1] أيضا في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾[2].

وتعتبر كرامة الإيمان والاستقامة من أقوى الكرامات لما فيها من زيادة في الإيمان والتقوى والورع والتقليل من المباحات والإكثار من العبادات، من صلاة وصدقات ورباط وجهاد، وصيام وحج وهم الموصوفون بالمقربين والسابقين في قوله تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ * أُولَئِكَ الْمُقَرَّبُونَ * فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ * ثُلَّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ ﴾[3].

وهم كذلك المعنيون في حديث البخاري: « من آذى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرّب إلي عبدي بمثل أداء ما افتُرض عليه، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينّه، ولئن استعاذ بي

[1] – عقيدة المؤمن ، أبو بكر جابر الجزائري ، دار الشروق ، ط3 ، جدّة ، 1402هـ/1982م ، ص 178.

[2] – سورة الأحقاف ، الآيتان 13 – 14.

[3] – سورة الواقعة ، الآيات من 10 إلى 14.

لأعيذنّه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته، ولا بد منه» رواه البخاري[1].

فهؤلاء هم في مرتبة من مراتب الكرامة إذ يعرفون باستقامتهم، واستجابة ربهم لهم فيما يطلبونه، فلو سألوه زوال جبل لزال، وهم الذين يظهر الله تعالى على أيديهم ببركة دعائهم خوارق العادات كتكثير القليل وشفاء العليل، والإنقاذ من الهلاك المحتوم.

أ) الكرامة والمعجزة :

إنّ ظهور الكرامات على الأولياء لعلامة صدق من ظهرت عليه، فمن لم يكن صادقا فظهور مثلها عليه لا يجوز، ولا بد أن تكون الكرامة ناقضة للعادة في أيام التكليف، ظاهرة على موصوف بالولاية في معنى تصديقها في حاله، وهنا يجب أن نفرق بين الكرامات والمعجزات[2].

فالمعجزات دلالات صدق الأنبياء، ودليل النبوة لا يوجد مع غير النبي.

وكذلك من الفروق بين المعجزات والكرامات.

إن المعجزات تختص بالأنبياء والكرامات تكون للأولياء.

---

[1] – عقيدة المؤمن ، أبو بكر جابر الجزائري ، ص 179.

[2] – الرسالة القيشرية ، القشيري ، ص 353.

« لا تكون للأولياء معجزة لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها، والمعجزة لم تكن معجزة لعينها، وإنما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة، فمتى اختل شرط من تلك الشروط لا تكون معجزة، وأحد تلك الشروط دعوى النبوة، والولي لا يدعي النبوة، والذي يظهر عليه لا يكون معجزة، فشرائط المعجزات كلها أو أكثرها توجد في الكرامة إلا هذا الشرط الواحد والكرامة فعل لا محالة محدث، وهو ناقض للعادة، ويحصل في زمان التكليف، وتظهر على عبد تخصيصا له وتفضيلا، وقد تحصل باختياره ودعائه، وقد لا تحصل، وقد تكون بغير اختياره في بعض الأوقات، ولم يأمر الولي بدعاء الخلق إلى نفسه، ولو أظهر شيئا من ذلك على من يكون أهلال لجاز»[1].

والمعجزة تكون للنبي إذ لا بد من آية يفصل بها المكلفون بصدقه بينه وبين الكذب، وكانت معجزة نبيّ الإسلام محمد ﷺ هي القرآن الكريم ففيه مزية لا توجد في غيره من الكتب السماوية ، إذ هو آية باقية حاضرة لا يحتاج في العلم بوجودها إلى أخبار ونقل[2].

ومن الفروق كذلك الأنبياء مطالبون بإظهار معجزاتهم للخلق والاحتجاج، أما الأولياء فمطالبون بالكتمان.

---

[1] – الرسالة القيشرية ، القشيري ، ص 353.

[2] – رسالة ماجستير ، كرامات الأولياء، لخضر وحياني ، كلية الآداب ، قسم الثقـــافة الشعبية ، جامعة تلمسان ، 2002 ، ص 247.

والأنبياء يحتجون بها على المشركين والكفار، أما الأولياء فيحتجون بها على أنفسهم ليزداد إيمانهم.

والأنبياء معصومون من الخطأ ، أمّا الأولياء فهم محفوظون. فالمعصوم لا يقوم بأي ذنب مهما كان، أما المحفوظ فقد يقوم بعض الهفوات أو الزلات.

قال الإمام أبو بكر بن فورك – رحمه الله تعالى -: « المعجزات دلالات الصدق، فإن ادعى صاحبها النبوة دلت على صدقه، وإن أشار صاحبها إلى الولاية دلت على صدقه في حالته، فتسمى كرامة ولا تسمى معجزة، وإن كانت من جنس المعجزات للفرق »[1].

ومن الفروق بين المعجزات والكرامات أنّ الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مأمورون بإظهارها، والولي يجب عليه سترها وإخفاؤها.

قال أبو بكر الباقلاني: « المعجزات تختص بالأنبياء ، ولا تكون للأولياء والكرامات تظهر للأولياء، ولا يكون للأولياء معجزة، لأن من شرط المعجزة اقتران دعوى النبوة بها، والمعجزاة لم تكن معجزة لعينها، وإنما كانت معجزة لحصولها على أوصاف كثيرة، فمتى اختل شرط من تلك الشرائط لا تكون معجزة، وأحد تلك الشرائط دعوى النبوة، والولي لا يدعي النبوة، فالذي يظهر عليه لا يكون معجزة»[2].

---

[1] – بستان العارفين ، النووي ، دار ابن حزم للطباعة والنشر ، ط1 ، 1415 هـ/ 1994م ، ص 143.

[2] – المرجع نفسه ، ص 144.

فانطلاقا من هذا القول يرى ابن هوزان القشيري صاحب الرسالة القشيرية أنّ هذا القول هو المعمول به فشرط المعجزة إدعاء النبوة باعتبار أنّ المعجزة كلّها موجودة في الكرامة إلا هذا الشرط الأساسي وهو النبوة، كون كرامات الأولياء تابعة لمعجزات الأنبياء المتبوعين ثم يتابع القسري قوله بأن هذه الكرامات قد تكون إجابة دعوى وقد تكون إظهار طعام في وقت جوع من غير سبب ظاهر، أو حصول ماء في وقت عطش، أو تسهيل قطع مسافة في مدة قريبة، أو تخليص من عدو، أو سماع خطاب من هاتف، وغير ذلك من فنون الأفعال المناقضة للعادة فيستخلص أن الكرامة شيء مناقض للعادة أي للمألوف وليست بمعجزة[1].

يقول صاحب بستان العارفين "محي بن شرف النووي ": « إنّ هذه الكرامة لاحقة بمعجزات نبينا محمد ﷺ لأن كل من ليس يصادق في الاسلام تمتنع عليه الكرامات، فكل نبي ظهرت له كرامة على واحد من أمته فهي معدودة من جملة معجزاته، إذ لو لم يكن ذلك الرسول صادقا لم تظهر على من تابعه المعجزة -الّتي هي الكرامة – لهذا الواحد »[2].

- الكرامات من جملة المعجزات فهي مظهر لسيادة خاتم الأنبياء ﷺ على سائر الأنبياء بكثرة معجزاته في حياته وبعد موته.

- القرآن الكريم سيد المعجزات.

[1] - بستان العارفين ، النووي ، ص 148.

[2] - المرجع نفسه ، ص147

- الكرامات تتمة لمعجزات النبي.

كرامات الأولياء ومواهبهم :

قال تعالى : ﴿ أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ * لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾[1].

* كرامات وردت في القرآن الكريم :

ذكر القرآن الكريم نماذج من الكرامات التي ظهرت على الأولياء نذكر من ذلك:

- قوله سبحانه وتعالى عن مريم عليها السلام ، ولم تكن نبيا ولا رسولا: ﴿ فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِنْدَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾[2].

[1] - سورة يونس ، الآيتان 62، 64

[2] - سورة آل عمران ، الآية 37.

- وقوله سبحانه وتعـــالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ [1]، وكان هذا في غير أوان الرطب.

- وكذلك قصة أصحاب الكهف، والأعاجيب التي ظهرت عليهم من كلام الكلب معهم[2].

قوله تعالى : ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا * إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا رَبَّنَا آتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا * فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴾ [3].

وفي قوله تعالى : ﴿ قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴾ [4].

- ومن ذلك قصة ذي القرنين، وتمكينه سبحانه وتعالى له ما لم يمكّن لغيره.

- ومن ذلك ما ظهر عل يدي الخضر - عليه السلام -، وهي أمور مناقضة للعادة، اختص الخضر عليه السلام بها، و لم يكن نبيا وإنما كان وليا[5].

---

[1] - سورة مريم ، الآية 25.

[2] - منهاج المسلم ، أبو بكر جابر الجزائري ، دار الفكر ، ط8 ، 1392 هـ/ 1973 ، ص 55..

[3] - سورة الكهف ، الآية 9 – 10.

[4] - سورة الأنبياء ، الآية 69 – 70

[5] - الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 357.

- ومن ذلك قصة صاحب سليمان – عليه السلام -، حيث قال: ﴿ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ﴾ [1] ، قال العلماء: و لم يكن نبيّا.

* كرامات وردت في السنة الشريفة :

روى أبو هريرة – رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال : « لم يتكلم في المهد إلا ثلاثة عيسى ابن مريم، وصبي في زمن جريج، وصبي آخر ».

أمّا قصة جريج، فقد كان عابدا في بني إسرائيل، وكانت له أم، فكان يوما يصلي، إذ اشتاقت إليه أمه، فقالت: يا جريج، فقال يا رب: الصلاة خير أم آتيها، ثم صلى، فدعته، فقال: مثل ذلك، ثم صلى، فاشتد الأمر على أمه، فقالت: اللهم لا تمته حتى تريه وجوه المومسات.

وكانت هناك امرأة زانية في بني إسرائيل فقالت لهم: أنا أفتن جريجا حتى يزني، فأتته فلم تستطع إغواءه.

وكان هناك راع يأوي بالليل إلى أصل صومعته، فلما أعياها جريج، راودت الراعي عن نفسه فآتاها، فحملت، وعندما ولدت سألها الناس عن ولدها هذا، فقالت: ولدي هذا من جريج، فأتاه بنو إسرائيل، وكسروا صومعته وشتموه.

[1] – سورة النمل ، الآية 40.

ثم إنّه صلى ودعا ربه، ثم نخس الغلام، وقال: يا غلام، من أبوك؟، فقال الطفل: والدي الراعي.

فندم القوم على ما كان منهم، واعتذروا لجريح، وقالوا له نبني صومعتك، فأبى عليهم وبناها كما كانت[1].

وهناك الكرامات الّتي رواها العلماء أو شاهدوها من الأولياء، بعض منها ما يروى أن الملائكة كانت تسلم على عمران بن حصين - رضي الله عنهما - وأن سلمان الفارسي وأبا الدرداء كانا يأكلان في صحفة فسبحت الصحفة والطعام فيها، وأن خبيبا كان أسيرا عند المشركين بمكة فكان يؤتى بعنب يأكله ، وليس بمكة من عنب وأن البراء ابن عازب - رضي الله عنه - كان إذا أقسم على الله في شيء استجاب الله له حتى كان يوم القادسية أقسم على الله أن يمكن المسلمين من رقاب المشركين وأن يكون أول شهيد في المعركة فكان كما طلب.

وكذلك عمر بن الخطـــاب - رضي الله عنه – كـــان يخطب على منبر رسول الله ﷺ فإذا به يقول : يا سارية الجبل، يا سارية الجبل، بوجه قائد المعركة يقال له سارية، فسمع سارية صوته وانحاز بالجيش إلى الجبل، فكان في ذلك نصرا لهم، وانهزم أعداؤهم من الكفار، ورجع سارية فأخبر عمر والصحابة بما سمع من صوت عمر -رضي الله عنه-، وأن العلاء بن الحضرمي -رضي الله عنه- كان يقول في دعائه:"يا عليم يا حكيم، يا علي يا عظيم"، فيستجاب له حتى إنه خاض البحر

[1] - بستان العارفين ، النووي ، ص 136.

بسرية ومن معه من الجيوش فلم تبتل سروج خيولهم، وأن الحسن البصري دعا الله على رجل كان يؤذيه فخر ميتا في الحال.

وأنّ رجلا من الصالحين كان له حمار فمات له في طريق سفره فتوضأ وصلّى ركعتين ودعا الله فأحيا له حماره، وحمل عليه متاعه، إلى غير ذلك من الكرامات الّتي لا تعد ولا تحصى والّتي شاهدها آلاف الناس[1].

تعريف الولي :

إنّ لفظ الولي وجمعه أولياء يكون اسم فاعل بمعنى المتولي غيره، المولي له، ويكون اسم مفعول بمعنى الذي يواليه غيره ويتولاه، فالله تبارك وتعالى وهو الولي الحميد، ولي عبده المؤمن بمعنى أنه هداه للإيمان، ووفقه للطاعة وأدناه منه، وقربه إليه، وأحبه، ونصره فهو مولاه ووليه[2].

قال تعالى: ﴿ إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ ﴾[3].

والمؤمن وليّ الله تعالى بمعنى أنّه سبحانه هداه وتولاه وبمعنى أن المؤمن ولي الله تعالى فآمن به، واتّقاه وأحبه، وأطاعه، ووافقه في محابه ومسخاطه، فوالى من يوالي، وعادى من يعادي، وأحب ما أحب ومن أحب، وكره ما كره ومن كره، فكان يد كل عبده ووليه.

---

[1] – منهاج المسلم ، أبو بكر جابر الجزائري ، دار الفكر ، ط8 ، سنة 1392 هـ/ 1973 ، ص 56.

[2] – عقيدة المؤمن ، أبو بكر جابر الجزائري ، ص175.

[3] – سورة الأعراف ، الآية 196.

وإنّ من تكريم الله تعالى للوليّ أنّه قال في حديث قدسي : « من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب » وهو أنّه من عادى وليّا – وهذه التسمية تشريف له ورفع لشأنه إذ أضافه لنفسه – فقد أعذر الله إلى كل سامع أنّ من هذا شأنه لا ينبغي أن يعادى ، بل على كلّ من عرف أنّ هذه صفته أن يواليه ويحبّه ، فإذا لم يفعل فقد أعذر الله إليه ، ونبّهه على أنّ من عاداه يستحقّ العقوبة البالغة وهي الحرب ، وإنّ الحرب تنشأ عن العداوة ، والعداوة عن المخالفة ، وغاية الحرب الهلاك[1].

ليس من شرط الولي أن يكون معصوما لا يغلط ولا يخطئ بل يجوز أن يخفى عليه بعض علم الشريعة، ويجوز أن يشتبه عليه بعض أمور الدين حتى يحسب بعض الأمور مما أمر الله ومما نهى الله عنه، ويجوز أن يظن في بعض الخوارق أنها من كرامات أولياء الله تعالى، وتكون من الشيطان لبسا عليها لنقص درجته ولا يعرف أنها من الشيطان، وإن لم يخرج بذكر عن ولاية الله تعالى فإن الله سبحانه تجاوز لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه[2].

قال الله تعالى : ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ

[1] – رسالة ماجستير ، كرامات الأولياء ، لخضر وحياني ، ص 131.

[2] – الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ابن تيمية ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، د.ط ، د.ت ، ص 27.

أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ [1].

ولهذا لما كان ولي الله يجوز أن يغلط لم يجب على الناس الإيمان بجميع ما يقوله، إلاّ أن يكون نبيا، بل ولا يجوز لولي الله أن يعتمد على ما يلقى إليه في قلبه إلا أن يكون موافقا للشرع، وعلى ما يقع له مما يراه إلهاما ومحادثة وخطابا من الحق، بل يجب عليه أن يعرض ذلك جميعه على ما جاء به محمد ﷺ فإن وافقه قبله وإن خالفه لم يقبله[2].

تعريف الولاية :

الولاية في عرف اللغة مصدر ولي الشيء يليه وليا وولاية إذ دنا منه وقرب أو أقام به، وهلك أمره، أو نصره، وأحبه.

ويصاغ من فعل ولي المفاعلة [3].

هذا معنى الولاية في عرف اللغة، وهو لا يختلف عنه كثيرا في الدين إذ كلا المعنيين يدور على القرب والحب والنصرة والقيام بالأمر لصالح الولي، وضد الولاية العداوة، وهي تدور على البعد والبغض وإرادة الشر والهلاك للشخص المعادي، على

[1] – سورة البقرة ، الآية 285 – 286.

[2] – الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ابن تيمية ، ص 28.

[3] – عقيدة المؤمن ، أبو بكر جابر الجزائري ، ص 171.

عكس الولاية. وبناء على هذا ، فولاية الله تعالى للعبد: أن يهديه إلى الإيمان به، وإلى معرفته، وطاعته ومحبته، ونصره دينه فيعمل العبد بذلك، ويقرب به من ربه عز وجل حتى يحبه فإذا أحبه قربه، وتولى أموره، ونصره وحفظه، فكان بذلك وليه، كما قال تعالى : ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَآؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ [1].

وولاية العبد للرب تعالى أن يؤمن به، ويتقيه ويتقرب إليه بطاعته ويوافقه في محابه، ومكارهه، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي وينصر دينه وأولياءه، وبذلك يكون وليا لله تعالى.

ومن هذا نستنتج أصل الولاية وشرطها، فأصلها الإيمان والتقوى وشرطها الموافقة التامة في الحب والبغض ، والموالاة ، والمعاداة ، ومتابعة الرسول ﷺ في كل ما جاء به، ودعا إليه من أصول العقائد، والعبادات والآداب والأخلاق ، متابعة يتجرد فيها العبد لله ، ويخلص له فيها ، إذ لا تتم محبة الله للعبد إلا بشرط المتابعة للرسول ﷺ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [2].

---

[1] – سورة البقرة ، الآية 257.

[2] – سورة آل عمران ، الآية 31.

الفرق بين الولايتين :

إنّ هناك فرقا بين ولاية الله تعالى للعبد، وبين ولاية العبد لله عز وجل نحب ملاحظته، وهو أن الله تعالى لا يوالي عن افتقار للعبد، واحتياج إليه، وإنما يوالي إكراما للعبد، وإنعاما عليه، لغناه تعالى عن كل ما سواه، وافتقار كل ما عداه إليه تعالى، وهذا من معالي اسمه (الصمد) وقد نفى الله تعالى في كتابه العزيز أن يكون له ولي من الذل، فقال تعالى: ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ [1].

وأمّا العبد فإنه يوالي، إن وفقه الله تعالى يوالي لفقره وحاجته إلى ربه، إذ هو دائما في حاجة إلى نصرة ربه ومعونته ومحبته ورضاه، وتقريبه إليه، إذ لا يسعد العبد إلا في جوار مولاه، ولا ينعم إلا إذا تغمده ربه برحمته وخلع عليه فضلا منه رضوانه.

هذا هو الفرق بين ولاية الرب تعالى للعبد، وبين ولاية العبد للرب سبحانه وتعالى، فليعلم فإنّه مهمّ وجدير بالفهم والمعرفة [2].

ب) كرامات أولياء الله تعالى :

يؤمن المسلم بأنّ لله تعالى من عباده أولياء استخلصهم لعبادته واستعملهم في طاعته وشرفهم بمحبته، وأنالهم من كرامته، فهو وليهم يحبهم ويقربهم، وهم أولياؤه

[1] - سورة الإسراء ، الآية 111.

[2] - عقيدة المؤمن ، أبو بكر جابر الجزائري ، ص 174.

يحبونه ويعظمونه يأمرون بأمره، وبه يأمرون، وينتهون بنهيه، وبه ينهون، يحبون بحبه وببغضه يبغضون، إذا سألوه أعطاهم، وإذا استعانوه أعانهم، وإذا استعاذوا به أعاذهم، وأنهم هم أهل الإيمان والتقوى، والكرامة والبشرى في الدنيا وفي الآخرة، وأن كل مؤمن تقي هو لله ولي غير أنهم يتفاوتون في درجاتهم بحسب تقواهم وإيمانهم، فكل من كان حظه من الإيمان والتقوى أوفى ، كانت درجته عند الله تعالى أعلى ، وكانت كراماته أوفر ، فسادات الأولياء هم المرسلون والأنبياء، ومن بعدهم المؤمنون، وأنّ ما يجريه الله على أيديهم من كرامات كتكثير القليل من الطعام، أو إبراء الأوجاع والأسقام، أو خوض البحار أو عدم الاحتراق بالنار، وما إليه هو من جنس المعجزات، غير أن المعجزة تكون مقرونة بالتحدي، والكرامة عارية عنه، غير مرتبطة به، وأن من أعظم الكرامات الاستقامة على الطاعات بفعل المأمورات الشرعية، واجتناب المحرمات والمنهيات[1].

والأدلة على ذلك كثيرة[2] منها قوله تعالى :

- ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾[3].

- وفي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾[4].

---

[1] - منهاج المسلم ، أبو بكر جابر الجزائري ، ص54.

[2] - المرجع نفسه ، ص 55.

[3] - سورة يوسف ، الآية 24.

[4] - سورة الإسراء ، الآية 65.

- وقوله تعالى : ﴿ كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [1].

- وقوله تعالى : ﴿ وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ * إِذْ أَبَقَ إِلَى الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ * فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ الْمُدْحَضِينَ * فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ * فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ * لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾ [2].

شروط الأولياء :

أولا : لا تتم ولاية عبد الله تعالى، ولا بتنظيم في سلك أولياء الله تعالى إلا بالإيمان الصحيح، والتقوى القائمة على مبدأ فعل المأمورات وترك المنهيات.

الثاني : إنّ الأولياء يتفاوتون في قربهم من الله تعالى، وعلو مترلتهم عنده وفي كراماتهم بحسب قوة إيمانهم وتقواهم، وكمال موافقتهم لربهم.

الثالث : إن الكرامات وهي الأمور الخارقة (أمر خارق للعادة غير مقترن بالتحدي، ودعوى النبوة) للعادة التي يظهرها الله تعالى على يد بعض أوليائه، ليست شرطا في ثبوت الولاية، ولا في نفيها، ولما كانت تنقص من درجة من يظهرها الله

[1] - سورة آل عمران ، الآية 37.

[2] - سورة الصافات ، من الآية 139إلى الآية 144.

تعالى على يده، لأنها بمثابة تعجل الجزاء على الإيمان والتقوى في الدنيا، كان بعض الأولياء يتوبون منها إلى الله تعالى، ويستغفرونه لأجلها.

الرابع : الأولياء من غير الأنبياء والمرسلين لا عصمة لهم، فقد يخطئون ويغلطون، غير أن الغالب في أحوالهم الحفظ مما يدنس شرف الولاية ويخل بمقامها، وإن وقع أن أحدثوا ذنبا لعدم عصمتهم أحدثوا له توبة على الفور، يقبلها الله تعالى منهم، بعد أن وفقهم لها، فيسلم بذلك مقامهم من التداعي والسقوط ومنـــزلتهم من التداني والهبوط[1].

الخامس : ضرورة وصف كل مؤمن تقي بالولاية ، فنقول : فلان ولي من أولياء الله تعالى ، أو نقول فلان ولي ، ونكرمه لذلك ، ونتحاشى إذايته لحديث أبي هريرة –رضي الله عنه – في البخاري عن النبي ﷺ أن الله تعالى قال: "من آذى لي وليا، فقد آذنته بالحرب ... إلى آخر الحديث ". ولا يجب الالتفات إلى قول من يقول بعدم جوز ذلك أي تكديب الولي لعدم الدليل على صحة الدعوى[2].

السادس : جهل المسلمين بحقيقة الولاية، وبمعرفة الولي جعلهم يعترفون بولاية المؤمنين الذين يعيشون معهم من أهل الإيمان والتقوى، إلاّ إذا ظهرت على يد المرء خوارق العادات، أو مات وشيّد له ضريح، أو بنيت على قبره قبة، حتّى إنّ أحدهم لو طلب منه أن يدل أحدا على ولي من أولياء بلده لا يدله على مؤمن تقي

[1] – عقيدة المؤمن ، أبو بكر جابر الجزائري ، ص 182.

[2] – المرجع نفسه ، ص 182.

يعيش بين الناس وإنما يدله على ميت له ضريح أو على قبره قبة وإن كان لا يعرف اسمه فضلا عن حالة أيام حياته فتقبل شهادته فيه، ويصبح حكمه عليه [1].

السابع : لقد أنكر الله تعالى على الناس اتخاذ أولياء من دونه في قوله: ﴿ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا ﴾ [2].

فلا يحل لمؤمن ولا لمؤمنة أن يتخذ له وليا دون ربه عز وجل فيلجأ إليه في الشدائد، ويستغيث به عند المخاوف ويستعيد به من المكاره، أو يعبده، ويتوكل عليه، ويوالي فيه ويعادي فيه إذ هذا معناه اتخاذ آلهة من دون الله، وهو شرك وكفر والعياذ بالله[3].

وذلك لأنّ أولياء الله هم الذين آمنوا، بالله تعالى، فأحبوا ما يحب، وأبغضوا ما يبغض، ورضوا بما يرضى، وسخطوا بما يسخط، وأمروا بما يأمر، ونهوا عما ينهى، كما في حديث لأبي داور إذ يقول: « ومن أحب لله وأبغض لله، وأعطى لله ومنع لله، فقد استكمل الإيمان »[4].

وأولياء الله تعالى على نوعين: مقربين وأصحاب يمين كما تقدم.

---

[1] – عقيدة المؤمن ، أبو بكر جابر الجزائري ، ص 183.

[2] – سورة الرعد ، الآية 16.

[3] – عقيدة المؤمن ، أبو بكر جابر الجزائري ، ص 183.

4– الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ابن تيمية ، ص 5.

فالأبرار أصحاب اليمين هم المتقربون إلى الله بالفرائض، يفعلون ما أوجب الله عليهم، ويتركون ما حرم الله عليهم، ولا يكلفون أنفسهم بالمندوبات.

وأما السابقون المقربون فتقربوا إليه بالنوافل بعد الفرائض، ففضلوا الواجبات والمستحبات، وتركوا المحرمات والمكروهات، فلما لم يعصوا الله، وقاموا بكل ما أمر به الله تعالى أحبهم الرب حبا تاما، قال تعالى: ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [1].

فهؤلاء المقربون صارت المباحات في حقهم طاعات يتقربون بها إلى الله عز وجل فكانت أعمالهم كلها عبادات لله، والمقتصدون كان في أعمالهم ما فعلوه لنفوسهم، فلا يعاقبون عليه، ولا يثابون عليه[2].

وقد ذكر الله تعالى أولياءه المقتصدين والسابقين[3] في قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ * جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ

[1] - سورة النساء ، الآية 69.

[2] - الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ابن تيمية ، ص 15.

[3] - المصدر نفسه ، ص 17.

وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ * وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ * الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لَا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ ﴾ [1].

ج) **مصطلح الصوفية والفقراء :**

كان السلف يسمون أهل الدين والعلم "القراء"، فيدخل فيهم العلماء و النساك ثم حدث بعد ذلك اسم "الصوفية والفقراء".

واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف مثلما هو شائع ، وقد تعددت المفاهيم في مفهوم التصوف والمتصوفة.

فالتصوف كما يعرفه ابن خلدون هو: « العكوف على العبادة والانقطاع إلى الله تعالى والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة »[2].

وهذا الانقطاع والإقبال تجربة سلوكية يتبعها غالبا كشف حجاب الحس والإطلاع على عوالم من أمر الله ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها".

والتصوف يقوم في جوهره على أساسين:

1- التجربة الباطنة المباشرة للاتصال بين العبد والرب.

---

[1] - سورة فاطر ، من الآية 32 إلى الآية 35.

2- المقدمة ، ابن خلدون ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ط ، د.ت ، ص 367.

2- إمكان الاتحاد بين الصوفي وبين الله.

« فالتصوف نزعة روحية توهجت في خاطر الإنسان منذ القدم، فكانت شعلة مقدسة شعت في وجدانه وقبسا نورانيا أنفذ في حناياه وأيقن أن تلك الشعلة وذلك القبس ليس سوى أشعة من الحقيقة المطلقة فراح يبحث عن تلك الحقيقة عله إن أدركها يسكن هجير قلقه، فيطمئن ويركن إليها فؤاده فيأنس »[1].

إذن فالتصوف مذهب كله جد فلا يخلط بالهزل وقيل تصفية القلب ومنازلة الصفات الروحانية والتعلق بعلوم الحقيقة واستعمال ما هو أولى على السرمدية والنصح لجميع الأمة والوفاء لله تعالى على الحقيقة واتباع رسوله ﷺ في الشريعة وقيل ترك الاختيار وقيل بدل المجهود والإنس بالمعبود... وقيل هو صفاء المعاملة مع الله تعالى[2].

عرض الكلابادي في كتابه "التعرف لمذهب أهل التصوف" بعض الآراء في تعليل التسمية، فقال: إنّ هناك من نسب الصوفية لصفاء أسرارها ونقاء آثارها، فالصوفي من صفا قلبه لله الصوفي من صفت لله معاملته.

[1] – التصوف الإسلامي ، حسن عاصي ، عز الدين للطباعة والنشر ، ط1 ، سنة 1414 هـ/ 1994 ، ص 13.

[2] – التعريفات ، الجرجاني ، ص 73.

وذهب آخرون في تعليل تسمية الصوفية لأنهم في الصف الأول بين يدي الله عز وجل، بارتفاع هممهم إليه، وإقبالهم بقلوبهم عليه، ووقوفهم بسرائرهم بين يديه[1].

يعلق الكلاباذي على هذه الآراء، فيرى أن من نسبهم إلى الصفة والصوف فإنه عبر عن ظاهر أحوالهم حيث أنهم تركوا دنياهم وخرجوا عن أوطانهم وهجروا أهلهم، فساحوا وجاعوا وعروا.

« إن الصوفية لم ينفردوا بنوع من العلم دون نوع، ولم يترسموا برسم من الأحوال والمقامات دون رسم، وذلك لأنهم معدن جميع العلوم ومحمل جميع الأحوال المحمودة والأخلاق الشريفة سالفا ومستأنفا... لبس الصوف دأب الأنبياء عليهم السلام وشعار الأولياء والأصفياء »[2].

فالتصوف هو: « التخلي عن الدنيا وعزوف النفس عنها، وترك الأوطان ولزوم الأسفار، ومنع النفس حظوظها، وصفاء المعاملات، وصفوة الأسرار، وانشراح الصدور، وصفة السباق »[3].

والتصوف لا يكون تصوفا إلاّ إذا توفر فيه شرط جوهري وأساسي وهو التأثير الروحي أو بتعبير آخر (البركة) وهي لا تأتي إلا بواسطة شيخ وهو الولي كما

[1] – التعريفات ، الجرجاني ، ص33.
[2] – التصوف الإسلامي ، حسن عاصي ، ص 35.
[3] – المرجع نفسه ، ص 40.

سلف الذكر، فالتصوف ليس عملا علميا، ولا بحثا نظريا، وهو لا يتعلم بواسطة الكتب (الطريقة الأكاديمية) بل إن ما دونه كبار مشايخ الصوفية لا يستخدم إلا كحافز للتأمل، والإنسان لا يصير بمجرد قراءته، متصوفا، على أن ماكتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلا لفهمه ولهذا يجب عليه أن تتوفر فيه الشروط التالية:

- يكون على استعداد فطري خاص.
- اكتسابه للبركة (موهبة يهبها الله لمن يشاء من عباده) التي هي شرط أساسي وبدونها لا يصل إلى درجات التصوف.
- ضرورة الإستكثار من الذكر (ذكر الله) أي استحضار الله في كل شيء، وفي تركيز الذهن في الخالق، حتى يصل إلى أعلى درجات التصوف فيصبح متصوفا حقيقيا[1].

أما اسم الفقراء فيعني به أهل السلوك، وهذا عرف حادث، وقد تنازع الناس: أيهما أفضل؟ مسمى الصوفي أو مسمى الفقير، ويتنازعون أيضا: أيهما أفضل، الغني الشاكر أو الفقير الصابر؟، وهذه المسألة فيها نزع قديم بين الجنيد وأبي العباس ابن عطاء، وقد روى عن الإمام أحمد بن حنبل فيها روايتان والصواب في هذا كله ما قاله الله تبارك وتعالى حيث قال في سورة الحجرات : ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا

[1] - المنقذ من الضلال ، عبد الحليم محمود ، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، ط1 ، 1979 ، ص 237-239

خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [1]، وفي الصحيح عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي ﷺ أنه سئل : « أي الناس أفضل ؟ قال : أتقاكم ، قيل ليس عن هذا نسألك ، فقال : يوسف نبي الله بن يعقوب نبي الله بن إبراهيم نبي الله. فقيل له : ليس عن هذا نسألك، فقال : عن معادن العرب تسألونني؟ الناس معادن كمعادن الذهب والفضة خياركم في الجاهلية خياركم في الإسلام إذا فقهوا ». فدلّ الكتاب والسنة أن أكرم الناس عند الله أتقاهم[2].

وفي السنن عن النبي ﷺ أنه قال : « لا فضل لعربي على عجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى، فكلكم لآدم وآدم من تراب ».

وعنه ﷺ أيضا – أنه قال: « إن الله تعالى أذهب عنكم عيبة الجاهلية وفخرها بالآباء، الناس رجلان مؤمن تقي وفاجر شقي ».

إذن فلفظ "الفقر" في الشرع يراد به الفقر من المال، ويراد به فقر المخلوق إلى خالقه، كما قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ ﴾ [3]، وقال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا

[1] – سورة الحجرات ، الآية 13.

[2] – الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ابن تيمية ، ص 24.

[3] – سورة التوبة ، الآية 60

النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاء إِلَى اللَّهِ ﴾ [1]، وقد مدح الله تعالى في القرآن صنفين من الفقراء أهل الصدقات وأهل الفيء ، فقال في الصنف الأول ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لاَ يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا ﴾ [2]، وقال في الصنف الثاني وهم أفضل الصنفين[3] : ﴿ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾[4].

وهذه صفة المهاجرين الذين هجروا السيئات وجاهدوا أعداء الله باطنا وظاهرا كما قال النبي ﷺ : « المؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم، والمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نَهى الله عنه، والمجاهد من جاهد نفسه في ذات الله »[5].

ونعود لذكر الفرق بين الأنبيـــاء والأوليـــاء : فالأنبيـــاء صلوات الله عليهم يجب عليهم الإيمان بجميع ما يخبرون به عن الله عز وجل ، وتجب طاعتهم فيما يؤمرون به ، بخلاف الأولياء ، فإنهم لا تجب طاعتهم في كل ما يؤمرون به ، ولا

---

[1] – سورة فاطر ، الآية 15.

[2] – سورة البقرة ، الآية 273.

[3] – الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ابن تيمية ، ص 25.

[4] – سورة الحشر ، الآية 8.

[5] – الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ابن تيمية ، ص 25.

الإيمان بجميع ما يخبرون به ، بل يعرض أمرهم وخبرهم على الكتاب والسنة ، فما وافق الكتاب والسنة وجب قبوله ، وما خالف الكتاب والسنة كان مرفوضا ، وإن كان صاحبه من أولياء الله وكان مجتهدا معذورا فيما قاله ، لكنه إن خالف الكتاب والسنة كان مخطئا ، وكان من الخطأ المغفور إذا كان صاحبه قد اتقى الله ما استطاع[1] ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ... ﴾ [2] ، وهذا تفسير قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ ﴾ [3].

إذن فيجب على الأولياء الاعتصام بالكتاب والسنة، فليس فيهم معصوم يسوغ له اتباع ما يقع في قلبه بدون الرجوع إلى الكتاب والسنة، فمن خالف هذا لم يكن من أولياء الله الذين أمرهم باتباعهم ، بل قد يكون كافرا أو جاهلا كقول الشيخ أبي القاسم الجنيد: « علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة، فمن لم يقرأ القرآن ويكتب الحديث لا يصلح له أن يتكلم من علمنا هذا، أو يقتدي به ».

وقال أبو عثمان النيسابوري : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلا نطق بالحكمة، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلا نطق بالبدعة، لأنّ الله تعالى يقول : ﴿ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ﴾ [4] [5].

ومن الفروق بين الأولياء والأنبياء أو بين الولاية والنبوة :

---

[1] – الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان ، ابن تيمية ، ص 31.

[2] – سورة التغابن ، الآية 16.

[3] – سورة آل عمران ، الآية 102.

[4] – سورة النور ، الآية 54.

[5] – المرجع السابق ، ص 32.

فالنبوة أسمى من الولاية ، ومع ذلك فهناك من يرى أن مقام الولي القرب من الله بينما النبي منحه ، بطبيعة رسالته إلى الخلق ، إذ أن النبوة تتضمن الولاية ، فهي متضمنة لمقام القرب ، ثم إنها أكثر من الولاية ، وعلى ذلك فإنّ حالة الولي "ناقصة" بالنسبة لحالة النبي ، إنها ليست قاصرة بالنسبة لطبيعتها الخاصة ، ولكنها قاصرة بالنسبة لدرجتنا في العموم ، وهذا العموم يصل إلى درجات إزدهاره في الرسالة : إذ هي عالمية، والرسول لا غيره ، هو حقيقة الإنسان العالمي[1].

كرامات الشيخ أبي مدين :

والآن نتطرق للحديث عن كرامات الشيخ أبي مدين الّتي تداولها الناس وإذ كانت قليلة التدوين ، فكراماته وأحواله وأخباره الصادقة فكثيرة ، إذ بلغ – رحمه الله – من الورع مقاما عليا ونال من الزهد والتحقيق درجة عالية تبعه فيها المتقون واقتدى به المحققون ولازمه المصدقون، وقد ذكر هذه الكرامات أشياخه وتلامذته وأصحابه وأصدقاؤه، ويعتبر كتاب أنس الفقير وعزّ الحقير أصدق كتاب لما يكتنفه من شهادات حية لأن صاحب الكتاب ابن قنفد القسنطيني كانت له اتصالات شخصية مع تلامذة أبي مدين إذا عاصر تلامذته، أي بعد وفاة الشيخ بأعوام قليلة، ودون الكرامات التي اشتهر بها الشيخ أبا مدين وعلومه ومعارفه التي استفاد منها تلامذته وأصبحوا فيما بعد شيوخ، حتى أصبح الشيخ يلقب "بشيخ المشايخ" وإمام العباد والزهاد، ومن هذه الكرامات نذكر على سبيل المثال :

[1]- المنقذ من الضلال ، عبد الحليم محمود ، ص240.

ذكر التادلي وغيره أنّ رجلا جاءه ليعترض عليه، فجلس في الحلقة، فأخذ صاحب الدولة في القراءة، فقال له أبو مدين أمهل قليلا ثم التفت للرجل وقال له لم جئت فقال لأقتبس من نورك، فقال له ما الذي في كمك فقال له مصحف فقال له افتحه واقرأ في أول السطر يخرج لك ففتحه وقرأ أول السطر فإذا فيه: ﴿الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَاسِرِينَ﴾ [1] ، فقال له أبو مدين أما يكفيك هذا فاعترف الرجل وتاب وصلح باله[2].

ومن مشهور كراماته أنه كان ماشيا يوما على ساحل، فأسره العدو وجعلوه في سفينة فيها جماعة من أسر المسلمين فلما استقر في السفينة توقفت عن السير، و لم تتحرك من مكانها، مع قوة الريح ومساعدتها، وأيقن الروم أنهم لا يقدرون على السير، فقال بعضهم، أنزلوا هذا المسلم فإنه قسيس، فلعله من أصحاب السرائر عند الله، وأشاروا إليه بالنـــزول ، فقال : لا أفعل إلا أن أطلقتم جميع من في السفينة من الأسرى، فعلموا أن لا بد لهم من ذلك، فأنزلوهم كلهم، وسارت السفينة في الحال[3].

ومن كراماته أيضا أنه لما كان يدرس ببجاية اختلف بعض الطلبة في حديث الرسول ﷺ : « إذا مات المؤمن أعطي نصف الجنة »، فجاءوا إليه وهو يتكلم على

---

[1] - سورة الأعراف ، الآية 92.

[2] - الديوان ، ص8.

[3] - نفح الطيب ، المقري ، ص 347.

رسالة القشيري فكاشفهم في الحال بلا سؤال، وقال لهم، المراد أنه يعطى جنته هو، فيكشف له عند مقعده ليتنعم به، وتقر عينه، ثم النصف الآخر يوم القيامة[1].

كراماته وقصته الشهيرة مع الرهبان :

كان الشيخ سيدي بومدين يتكلم في الحقيقة، بعد صلاة الفجر، بمسجده، فسمع به رهبان دير يعرف بدير الملك، وكان عددهم سبعة عشر راهبا، فجاءه من أكابره عشرة بسبب الامتحان، فتنكروا ولبسوا زي المسلمين ودخلوا المسجد، فجلسوا مع الناس و لم يعلم بهم أحد، فلما أراد الشيخ أن يتكلم سكت حتى دخل رجل خياط فقال له الشيخ ما أبطأك ؟ فقال له: يا سيدي لم آت حتى فرغت من العشرة أطواق التي أوصيتني بها البارحة فأخذها الشيخ منه ونهض قائما فألبس كل واحد من الرهبان طاقية فتعجب الناس من ذلك و لم يعلموا الخبر ، ثم شرع الشيخ في الكلام، فكان من قوله : يا فقراء إذا هبت نسمات التوفيق من جنات الحق تعالى على القلوب المشرقة أطفأت كل نور، ثم تنفس الشيخ، فأطفأت القناديل وكانت أكثر من ثلاثين ثم سكت الشيخ وأطرق، فلم يجسر أحدا أن يتكلم أو يتحرك لعظم الهيبة ثم رفع رأسه وقال: لا إله إلا الله يا فقراء إذا أشرقت نور العناية على القلوب الميتة عاشت وأضاء لها كل ظلمة، ثم تنفس الشيخ فاشتعلت القناديل وعاد إليها نورها واضطربت اضطرابا شديدا حتى كاد يلحق بعضها بعضا ثم تكلم الشيخ في تفسير آية السجدة فسجدوا وسجد الناس فسجد الرهبان مع الناس خشية الفضيحة

[1] - نفح الطيب ، المقري ، ص 348.

والإشهار، فقال الشيخ أثناء السجود: اللهم إنك تعلم بتدبير خلقك ومصالح عبادك وإن هؤلاء الرهبان فقد وافقوا المسلمين في لباسهم والسجود لك، وأنا قد غيرت ظواهرهم ولا يقدر على تغيير بواطنهم غيرك، وقد أجلستهم على موائد كرمك أنقذهم من الشرك والطغيان وأخرجهم من ظلام الكفر إلى نور الإيمان، فما رفع الرهبان رؤوسهم من السجود إلا وقد دخلوا في دين الله فأسلموا وآمنوا بالله فآتوا إلى الشيخ وتابوا على يده وبكوا وندموا على ما كان منهم فكثر الصراخ والبكاء في المسجد فكان يوما مشهورا ومات ثلاثة من الناس، وبلغ الملك خبرهم، فأحسن إليهم، وفرح الشيخ بإسلامهم[1].

ويقول عنه ابن عربي : « وكان شيخنا أبو مدين إذا خطر له خاطر في نفسه، وجد جوابه مكتوبا في ثوبه، فخطر له يوما أن يطلق امرأته، وكان بحضور العارف أبي العباس الخشاب، فرأى مخطوطا في ثوب الشيخ : أمسك عليك زوجك ».

ثم يضيف قائلا: « إنّه سافر مرة مع جماعة ونزلوا في صحراء فسمعوا في الليل صوتا وخافوا أن يلحقهم أذى من طرف اللصوص أو قطاع الطرق، وتمنوا ضوءا يؤنسهم لشدة الظلمة، فصلى تحت الشجرة ركعتين ودعا فأضاءت الشجرة حتى أشرق الموضع كله إلى الصباح وآمنوا وقال: وروينا أن الشيخ أبا مدين قرأ مرة في

[1] - الديوان ، ص 17-18.

الصلاة قوله تعالى: ﴿ وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلًا ﴾ [1]، فامتص شفتيه فلم فرغ قال لما تلوتها سقيت من الكأس »[2].

قال الشيخ السراج: روينا عن الفقيه أبي العباس أحمد ابن قريش الخزرشي التلمساني قال سمعت شيخنا أبا محمد صالح الدكالي يقول: "قامت الحرب مرة بالمغرب بين المسلمين والفرنج، وكان الظهور للفرنج، فأخذ شيخنا أبو مدين سيفه وخرج إلى الصحراء مع نفر من أصحابه وجلس على كثيب من الرمل، فإذا بين يديه خنازير قد ملاءت الصحراء، فوثب حتى صار بينهم وعلا بالسيف رؤوسهم حتى قتل كثيرا منهم فهربوا، فسألناه فقال: هؤلاء الفرنج، وقد خذلهم الله تعالى، فجاء الخبر بكسرتهم، فجاء المجاهدون وانكبوا عليه يقبلون قدميه وأقسموا لو لم يكن الشيخ بين الصفين لهلكوا، وأخبروا أنه كان يعلو بسيفه رأس الفارس فيصرعه وفرسه، وأنه قتل منهم الكثير، وقاتلهم شر قتله، وولوا مدبرين، وأنهم لم يروه بعد الحرب، وكان بين الشيخ والمعركة أكثر من شهر[3].

وقال الشيخ المناوي: ومكث في بيته سنة لا يخرج إلا للجمعة، فاجتمع الناس ببابه وسألوه أن يتكلم عليهم وألزموه، فخرج ففرت منه عصافير كانت على سدرة بداره، وقال: لو صلحت للحديث إليكم ما فرت مني الطير ولا الوحش، فقعد عاما

---

[1] – سورة الإنسان ، الآية 17.

[2] – الديوان ، ص 17.

[3] – جامع كرامات الأولياء ، النبهاني ، ج2 ، ص 117.

فأتوه، فخرج، فلم تفر منه الطير فتكلم عليهم وترك الطير يطرب بأجنحتها وتحفق حتى مات منها كثير، ومات رجل من الحاضرين[1].

ومن كراماته، أنّه نسي يوما في جيبه دينارا- ومن عادته أنّه لا يترك الدراهم في جيوبه- وكان كثيرا ما ينقطع في جبل الكواكب وكانت هناك غزالة تأتيه فتدور عليه، فيكون ذلك قوته، فلما جاء ذلك اليوم إلى الجبل جاءت الغزالة وهو محتاج إلى الطعام، فجاءها على عادته ليشرب من لبنها فنفرت منه، وما زالت تنطحه بقرونها، وكلما مد يده إليها نفرت منه، ففكر في سبب ذلك، فتذكر الدينار فأخرجه من جيبه ورمى به، فجاءته الغزالة وأنست به ودرت عليه[2].

ومما يروى عن كراماته أنه أثناء تجواله ، دخل يوما على عجوز في مغارة ، فأقام عندها، فجاء ابنها آخر النهار فسلم عليه ، فقدمت العجوز سفرة فيها صحن وخبز، فقعد الشيخ والابن يأكلان فقال الابن: تمنيت أن لو كان هذا كذا أي هذا الطعام متنوع فقال الشيخ أبو مدين : سم الله ، وكل ما تمنيت ، فلن يزل يعدد التمني وهو يقول كلامه الأول واللون الواحد ينقلب ألوانا كثيرة ويجد الإبن الطعام الذي يتمناه.

ومن كراماته أنّ الوحوش كانت تذل له فإذا رأته ارتعدت لهيبته وخافت منه.

---

[1]- جامع كرامات الأولياء ، النبهاني ، ج2 ، ص 119.

[2]- المرجع نفسه ، ص 119.

ومرّ ذات يوم بحمار أكل السبع نصفه وصاحبه ينظر من بعد ، فذهب بصاحب الحمار إلى الأسد ، وقال له : أمسك بأذنه واستعمله مكان حمارك حتى يموت فركبه واستعمله سنين حتى مات[1].

وذكر تلميذه سيدي عبد الخالق التونسي عن الشيخ أبي مدين قال : سمعت رجلا يسمى موسى الطيار يطير في الهواء، ويمشي على الماء ، وكان رجلا يأتيني عند طلوع الفجر فيسألني عن مسائل لا يفهمها الناس ، فوقع ليله في نفسي أنه موسى الطيار الذي سمعت به ، وطال عليّ الليل في انتظاره، فلما طلع الفجر ، نقر الباب رجل، فإذا هو الذي يسألني، فقلت له : أنت موسى الطيار ؟ فقال نعم ، ثم سألني وانصرف ثم جاءني مع رجل آخر ، فقال لي : صلينا الصبح ببغداد وقدمنا مكة فوجدناهم في صلاة الظهر ، فأعدنا معهم وجلسنا حتى صلينا الظهر ، وأتينا القدس فوجدناهم في الظهر ، فقال لي : صاحبي هذا : نعيد معهم فقلت لا : فقال لي ولما ترانا أعدنا الصبح بمكة ؟ فقلت له هكذا كان شيخي يفعل وبه أمرني ، فاختلفنا وجئنا للسؤال عن هذا ، قال أبو مدين فقلت له : أما إعادة الصبح بمكة فلأنها عين اليقين وعين اليقين أولى من علم اليقين ، وصلاتكم الظهر بمكة وهي – أم القرى – فلذلك لا تعاد في غيرها، قال : فقنعنا به وانصرفنا.

وذكر بعضهم أن موسى هذا هو موسى أبو عمران الهروي وخبره عند الأولياء مشهور في الطيران وغيره[2].

---

[1] – جامع كرامات الأولياء ، النبهاني ، ج2 ، ص 119.

[2] – المرجع نفسه ، ص 120.

ذكر الشيخ الصالح أبو الزهر ربيع ما يلي : رأى ليلة في نومه أن القيامة قد قامت وأنه سيق به إلى النار ، فسأل عن سبب ذلك. فقيل بسبب ما اكتسبته من مال، فلما انتبه تصدق بماله كله وتاب إلى الله تعالى ولازم العبادة. واستقل بالقراءة واحترف الخياطة، ثم سار يوما إلى والدته وأخبرها بضيق حاله، فقالت له: أعرف لأبيك دار اغتصبت له وهذا رسمها فاطلبها فأخذ رسمها، واستفتى الفقهاء في الطلب وأذنوا له، فقال قلت في نفسي: قد استفتيت فقهاء الدنيا ولا بد أن أستفتي فقهاء الآخرة، قال: فسرت إلى الشيخ أبي مدين فوجدته بمسجد ببجاية فسألته فقال لي استفت ربك، فسكت، ثم قمنا إلى الصلاة وكانت صلاة الصبح فلما كنت في الركعة الثانية عرض عليّ شبه سنة خفيفة ، ثم سمعت من يقول : أطلب حقا واجبا؟؟ أطلب حقا واجبا ؟ فأتممت الصلاة مع الإمام وجلست بمجلس الشيخ أبي مدين لاستماع الذكر ، فلما انصرف الناس أقبل علي الشيخ أبي مدين وقال لي : أفتاك ربك فقلت له: أفتاني يا سيدي وهذا من كرامة الشيخ أبي مدين[1].

وذكر عنه الشيخ أبو مروان الفحصيلي ويعتبر إمام الزاهدين ، وقدوة المريدين، وحامل لواء العارفين عن الشيخ الصالح أبو عبد الله البوبي أنّه خرج يوما لزيارة الشيخ أبا مدين ببجاية ، فقال له الشيخ الفحصيلي :

سلم على أبي مدين وقل له: أدع لي... فقال : فلما وصلت إليه وجدته بثياب حسنة رفيعة ، برائحة المسك والطيب ، وهو على حالة تشبه حالة الملوك،

1 ـ أنس الفقير وعز الحقير، ابن قنفذ القسنطيني ، ص101، 102.

فسلمت عليه وجلست بين يديه ثم قلت له : يا سيدي يسلم عليك سيدي أبو مروان الفحصيلي وقال لك : أدع لي ، فقال : نزع الله من قلبه حب الدنيا.

قال : فتعجبت من هذه الدعوة وقلت : سبحان الله تركت الشيخ أبا مروان في غاية من الزهد والتقشف ونبذ الدنيا كلية ، وهذا الشيخ فيما رأيت من التمتع ويدعو له بهذه الدعوة ، فلما قضيت زيارتي ودعته ورجعت إلى بونة فقصدت الشيخ فوجدته بمرقعه وبيده قصبة صيد الحوت ، فسلمت عليه ، فقال لي : رأيت الشيخ أبا مدين ؟ فقلت له نعم ، وأخبرته بما وقع فأخذ القصبة وكسرها ورمى بالسنارة وقال : قال الشيخ الحق... قلت : ولا يعرف الفضل لأهل الفضل إلا أهل الفضل.

وكذلك ما روي عن تلميذه الشيخ محمد صالح لما استأذنه مرارا في فرن الخبز للفقراء إذ قال له إن التنور قد حمى وأثناء ذلك كان الشيخ أبا مدين مشغولا ، فلم ينتبه إلى كلامه، فلمّا أكثر عليه تلميذه قال له الشيخ أبو مدين : أدخل، ففعل تلميذه ودخل الفرن، ثم بعد هنيهة، تذكر الشيخ طاعة تلميذه، فأمر تلميذا آخرا بافتقاده فوجوده جالسا وسط التنور(الفرن) والنار تضطرم بردا وسلاما عليه إلا ما كان من موضع جبهته فإنه عرق عرقا [1].

وقد ألف بعض الفضلاء في كرامته قوله وكان ببركة الشيخ أبي مدين وظهور عنايته من انتسب إليه تكرمه العلماء والصلحاء والسلاطين ، ما يكتب إليه أحد من

[1]- الديوان ، شوار التلمساني ، ص10.

الأمراء الراشدين إلا يخصه بالسيادة وكتب مرة لأمير منهم في تسريح مسجون، فسرح كل من في السجن[1].

وذكر عنه الشيخ أبو عبد الله محمد ابن إبراهيم الأنصاري ، وهو من كبار تلامذته وكثير الرواية عنه ، حدّث فقال : كنت ليلا ببجاية مع أبي علي منصور المليانى من تلامذة الشيخ ، في ليلة مقمرة ، وقد قام كل واحد منا إلى مضجعه بالليل، فسمعت حسّا كحسّ طائر طار بشدة ، فرفعت بصري فإذا بشخص ظاهر على البحر يصلي ، فكتمت ذلك على أبي علي المليانى ثم قال لي أبو علي : هل ترى ما أرى ؟ فقلت له : رأيته حين انزعج وسترت ذلك عنك ، فقال لي : هو فلان الذي يحضر معنا مجلس الشيخ أبي مدين رضي الله عنه[2].

إذن فلا غرو إذا اعتبر أبو مدين أوّل من أدخل تعاليم الصوفية إلى المغرب العربي، كما يعتبر أقدم شيخ للطرق الدينية المنتشرة في الجزائر ، إذ يكفي أن تخرج على يده العديد من الطلبة الذين ادّعوا الولاية ورووا الكثير من الكرامات -كما سلف الذكر - التي نسبوها لشيخهم وأستاذهم أبي مدين وذلك بفضل دراسته المعمقة للشريعة الإسلامية وعلومها عن طريق الشيوخ ، لم يكن في ذلك الوقت معاهد وجامعات ، واعتبروا من مشاهير الصوفية نظرا لسعة ثقافتهم الدينية والتي لم تقتصر على الدراسات يل تعدت حتّى الممارسات لتلاوة الأوراد والأذكار البسيطة

[1]- أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص52.

[2]- المرجع نفسه ، ص37.

والأدعية والصوم والمجاهدات البدنية كما كان دأب الرسول ﷺ والّتي كان يجب عليهم أن يمارسوها فلهذا لا نتعجب عندما نرى رجال الصوفية يطلقون لقب القطب أو الغوث على الشيخ سيدي أبي مدين ذلك لتبحّره العميق في علوم الشريعة علما وعملا أي قولا وفعلا، سلوكا ومعاملة ، فالقطب : هو الغوث ، هو موضع نظر الله في العالم في كل زمان ، فالقطب هو : « الذي توقفت عليه حوائج العالم من أوّله إلى آخره ، قال الرسول ﷺ : إذا أحبّ الله عبدا أخبر به حملة العرش وأمر جبريل أن ينادي في السماوات باسم ذلك العبد حتّى يعرفوه ويحبّوه ، ثمّ يوضع له القبول في الأرض »[1] ، إنّ الله تعالى منذ وضع اسمه على الأرض لم ينظر أحد إلاّ وقد عرفه ، وملأت شهرته الآفاق لأنّه كان محبوبا عند الله، أمّا حال القطب « هذا المحبوب حسنة من حسناته وبه صلاح العالم وإليه ينظر الحق في الوجود... فالزموا طريقته، وعضوا عليها بالنواجذ »[2] (أي احرصوا عليه) ، وكان ثوابه أن خصه الله سبحانه وتعالى بالكرامات وذلك من أجل نشر تعاليم الدين الإسلامي وتبيان قوة الله ووحدانيته وعدم الشرك به ، فكما كان لكل رسول ونبي معجزة ، إذ كانت معجزة سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والرسل القرآن الكريم فكانت الكرامة هي الّتي وهبها الله لشيخنا أبا مدين أعظم هبة ، هذا فضلا عن العلوم والمعارف إذ روى عنه تلميذه الشيخ أبي العباس المرسي ما يلي : قال أبا مدين : « جلت في ملكوت الله

[1] – رسائل ابن عربي ، ابن عربي ، دار الكتب العلمية ، ط2 ، لبنان ، 2004 ، ص 252.

[2] – المرجع نفسه ، ص 252.

فرأيت سيدي أبي مدين متعلق بساق العرش، فقلت له وما علومك ؟ وما مقامك ؟ فقال علومي واحد وسبعون علما وأما مقامي فرابع الخلفاء ورأس السبعة الأبدال[1]".

قال القشيري : « فإن قيل ما الغالب على ولي في -حال صحوه ؟ قلنا صدقه في آداء حقوق الله تعالى ثم رأفته وشفقته على الخلق في جميع الأحوال ، ثم انبساط رحمته للخلق كافة ، ثم دوام تحمله عنهم بجميل الخلق ، وابتداؤه بطلب الإحسان من الله تعالى إليهم من غير إلتماس منهم ، وتعلق الصمية بنجاة الخلق (وترك الانتقام منهم) توفى عن استشعار الحق عليهم، مع قصر اليد عن أموالهم وترك الطمع بكل وجه فيهم، وقبض اللسان عن بسطه بالسوء فيهم، والتهاون عن شهود سماويهم ولا يكون خصما في الدنيا والآخرة ».

قلت : معناه أنه يعفو عن حقوقه في الدنيا فلا يطالبهم بها في الدنيا فلا يبقى له عندهم شيء يطالب به في الآخرة[2] ، قال الله تعالى: ﴿ وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾[3].

وقال تعالى: ﴿ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾[4].

---

[1] - السعادة الأبدية ، عبد الحميد حميدو ، ص 64.

[2] - بستان العارفين ، الإمام النووي ، ص133، 134.

[3] - سورة الشورى ، الآية 43.

[4] - سورة آل عمران ، الآية 134.

إذن هذه صفة المؤمن حقا، فتخصص صفة الولي على شخص ما ، يؤدي للاعتقاد أن الناس عاجزون عن أن يصلوا إلى هذه الأعمال لأنّها بسبب أنها خاصة بالولي فقط فهذا اعتقاد خاطئ، فحق الولاية هبة من الله تعالى ، يعطيها لمن شاء ، ولا يقدر الإنسان أن يصل إليها بسعيه ، فكثيرا من المنصوفة برغم من تصوفهم وورعمهم وشدة إيمانهم وتقواهم لم يصلوا إلى هذه المرتبة فيهولون الأمر ويعظمونهم حتى يجعل أغلب الناس تعتقد أن الوصول لمرتبة الولاية أمر تعجيزي وصعب المنال، لكن في حقيقةالأمر، الولاية هي الإستقـــامة على الشريعة المحمدية واتباع أحكام الدين وما ذكروه من الصفات قد أمر الله به وخاطب الناس ليعملوا بموجبه، فهو ليس بالأمر الصعب ولا خارق للعادة ، بل إنه ضروري لكل مسلم ، للفوز بالجنة في الآخرة، ومن نقص عن عمله فإن في اعتقاده خللا إلاّ ما كان من الأعمال الكونية التي يجازي على فعلها ولا يعاقب على تركها ، فكلمة الولي مرادفة لكلمة مؤمن أي المؤمن الحق ، المؤمن القوي ، المؤمن الصحيح الذي يتميز بصفات حقيقية مستمدة من الكتاب والسنة من القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والسيرة الذاتية للرسول ﷺ وهذا ما اتصف به فعلا الشيخ أبو مدين ، من شخصية صوفية.

حقيقة استمد سيرته وأعماله من الكتاب والسنة ، وكان حقا شيخا ، بل شيخ المشايخ ، إذ بلغ أعلى درجة التصوف وهذا باعتراف تلاميذته ومعاصريه ، إذ مازال ضريحه إلى يومنا هذا مقصدا لكل الزائرين من كل أنحاء العالم حتى الأجنبية منها.

2- حكمه :

يضمّ ديوان أبي مدين شعيب حكما نثرية ويبلغ عددها (138) حكمة ، أوّلها قوله: « الحقّ سبحانه ، مطلع على السرائر والظواهر في كلّ نفس وحال » وآخرها قوله: « الفقر فخر والعلم غنم والصمت نجاة والأياس راحة والقناعة غنى » إلى أن يقول: « طلب الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة ».

وحكمه كما يقال عنها عبارة عن كلمات طيّبات ونبذ مفتخرات من كلامه، وكلّ حكمة تحمل بين طيّاتها قيما إنسانية وأخلاقية صالحة لكلّ زمان ومكان ، بل تعتبر كنـــزا ثمينا لا ينفذ.

فنقول إذن : « إنّ الحكمة هي القول السديد الصائب، النبيل الغرض، السامي الهدف، الذي ينطق عن ميزان النبوّة، ويهدي إلى قيام الحياة، والتي كلّ ما ينفع الإنسان في الدنيا والآخرة »[1].

والحكم كثيرة في القرآن الكريم، منها قولـــه تعـــالى : ﴿ يُؤتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ ﴾[2] ، وقولـــه تعـــالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾[3] ، وقوله : ﴿ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ ﴾[4] ، وقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا

---

[1] – الأدب في التراث الصوفي ، محمد عبد المنعم خفاجي ، مكتبة غريب ، ص 92 .

[2] – سورة البقرة ، الآية 269.

[3] – سورة آل عمران ، الآية 48 .

[4] – سورة المائدة ، الآية 110 .

وَعِلْمًا ﴾[1] ، وقولـــه : ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّه ﴾[2] ، وقولـــه كذلك : ﴿ وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّه وَالْحِكْمَة ﴾[3] ، وقوله تعالى : ﴿ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَة ﴾[4].

كما وردت في الحديث النبوي الشريف كثير من نصوص البلاغة النبوية ، وكذلك اشتمل كلام الخلفاء الرّاشدين وأعلام أئمة الصحابة والتابعين والعباد والزهاد والصوفية على الكثير من الحكم والأقوال الصائبة ، والحكمة إذا اشتهرت صارت مثلا ، فالأمثال هي حكم مشهورة[5].

ولقد ظفر الصوفية بحسن المتابعة لرسول الله ﷺ في أقواله وأفعاله ، وبحسن الاقتداء بحكمه ومأثوراته وبلاغته وسنته ، فقاموا بما أمرهم به ، وتركوا ما نهاهم عنه، فصوّروا إنتاجهم في أدب رفيع من الحكمة السامية.

ويعتبر الزهاد والنساك والعباد في القرنيين الأول والثاني هم مقدّمات التصوّف الإسلامي كالحسن البصري ، الإمام الورع والزاهد العابد المشهور بالحكمة وجودة البيان وبلاغة اللسان وجليل المعاني ، ومختلف الأغراض ، وهو من أكثر الصوفيين المعروفين بالحكمة ، والسلف من الصوفيين كانوا زهادا صالحين وأهل حكمة وعلم وعمل.

---

[1] – سورة يوسف ، الآية 22.

[2] – سورة لقمان ، الآية 12 .

[3] – سورة الأحواب ، الآية 34 .

[4] – سورة الجمعة ، الآية 2.

[5] – الأدب في التراث الصوفي ، محمد عبد المنعم خفاجي ، ص 93.

ومن كتب الحكمة عند الصوفيين :

- "كتاب عوارف المعارف" للسهروردي البغدادي المتوفى سنة 632 هـ.
- "كتاب الحكمة الإلهية" وكتاب "حكمة الأشراف" وكتاب "هياكل النور" للسهروردي الشامي.
- وكتب ابن عربي "فصوص الحكم".

إذاً ، فأدب الحكمة أدب واسع ، وفيه كثير من إشراقات أرواح الصوفيين ومن بلاغاتهم ، ومن ابتكاراتهم لدقيق المعاني وجليل الأغراض.

ولقد رتب الشيخ أحمد بن مصطفى العلاوي صاحب كتاب "المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية" ، هذه الحكم على شكل فصول حسب المقامات ، ومقتضى الأحوال تسهيلا للقارئ ، حتّى لا تكون مملّة وترغيبا في القراءة ، وعدد هذه الحكم مائة وسبعون (170) حكمة ورتّبها على ثمانية عشر فصلا ، ولكن ونظرا إلى كثرتها وخشية من التطويل المملّ ، فإنّنا سنورد بعض هذه الحكم فقط وهي :

- في العلم النافع.
- في التوكّل على الله عزّ وجل.
- في الزهد والقناعة.
- في الخشية والمراقبة.
- في نهيه عن صحبة الأشرار.
- في الإخلاص.

- في المحبّة والاشتياق.

- في أقوال القوم بعد فنائهم[1].

أ) **حكمه في العلم النافع :**

- يقول الشيخ أبو مدين : « العلم غنم »[2].

للعلم مكانة جليلة عند الله، فقد يكون العلم بالله وبوحدانيته، أو بأحكامه أي الفرائض والعبادات ... ، وفي هذا المجال يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[3] ، والعلم قد يكون موهوبا وقد يكون مكتسبا ، فالمكسوب نتيجة العمل والجهد المظفّر ، أمّا الموهوب ، فهو الذي خصّ به الله تعالى عباده ، أي هو فضل من عند الله لعباده فيعطيه لمن يشاء .

- ثمّ قال : « أنفع العلوم بأحكام العبيد ، وأرفع العلوم علم التوحيد »[4].

هذه الحكمة يقصد بها التفقه في الدين أي العلوم الفقهية : إذ يقول : « إذا أحبّ الله عبدا ، فقّهه في الدين وألهمه رشده ».

ويعتبر هذا العلم من أرقى درجات العلم لأنّه يتعلّق بمعرفة الخالق وعظمته ، فالتوحيد هو تعظيم بالخالق ويملأ القلب.

---

[1] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 10.

[2] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 122.

[3] – سورة الزمر ، الآية 9 .

[4] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 122.

وقال الشيخ كذلك: « من اكتفى بالتّعبّد دون فقه، خرج وابتدع ، ومن اكتفى بالفقه دون ورع ، اغترّ وانخدع »[1].

هذه الحكمة يقصد بها : العبادة فقط ؛ أي دون معرفة الأحكام ، وهذه تعتبر بدعة ، وكلّ بدعة ضلالة، لأنّه لا يعرف ماذا يفعل، كونه يجهل أحكام العبادة.

فالعلم فريضة على كلّ مسلم ومسلمة ، وخاصّة أحكام الله ، وإذا أحبّ الله عبدا أطلعه على أحكامه ، إذ يقول النبيّ ﷺ في هذا المضمار : « من تفقّه في دين الله عزّ وجل ، كفاه الله تعالى ما ألهمه ، ورزقه من حيث لا يحتسب » ، فالفقه هو عماد الدين.

فيجب على المؤمن أن لا يكتفي فقط بالعبادة دون تفقه أو خشية من الله فالعلم إذا لم يكن مرتبطا بمحبة الله وبخشيته فهذا العلم زائل ، وسوف يضع صاحبه في هلاك محتوم ، جزاء لمخالفته لأحكام الله ، فلابد على الإنسان أن يؤدي كل الفرائض على أتم وجه وذلك حتى ينال مرتبة عالية عند الله سبحانه وتعالى، لقوله ﷺ: « من عمل بما يعلم أورثه الله علم ما لم يعلم ».

ويواصل الشيخ أبو مدين حكمه قائلا: « من سمع العلم ليعلم الناس أعطاه الله فيما يعرف به الناس ومن تعلم العلم ليعامل به الحق أعطاه الله فيما يعرفه به ».[2]

للعلم فوائد جمة وكثيرة ، وأجره كبير فمثلا من علّم به الناس تضاعف أجره وأعطاه الله خيرا كثيرا.

---

[1]- العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 122.

[2]- المرجع نفسه ، ص 122.

في هذه الحكمة ، يبين لنا الشيخ أبو مدين أن العلم درجات فأعظم هذه الدرجات هو ذلك العلم الذي يتعامل به صاحبه الله عز وجل بمعرفته ، فيجازى على علمه ومعرفته ، أما من تعلم العلم ليكون منتهاه هو تعليم الناس ، فهو محمود ومشكور لقوله تعالى : ﴿ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾[1] ، وقوله أيضا : ﴿ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ ﴾[2] ، وقوله ﷺ : « إنّ الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم »[3] ، وقوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[4].

ب) **حكمه في التوكّل على الله عزّ وجلّ :**

يقول الشيخ أبو مدين : « التوكّل توكّل بالمضمون واستبدال الحركة بالسكون »[5].

فالتوكّل هو ثقة العبد بربّه وبمشيئته ، وللتوكّل مزايا كثيرة منها استراحة القلب من التدبير المنغص للعيش ، فيكتفي القلب بتدبير الحق عن تدبيره ، إذ يوكّل كلّ أموره إلى الله تعالى في قوله تعالى : ﴿ قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللّهُ ﴾[6] ، وقوله: ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[7].

---

[1] – سورة النحل ، الآية 27.

[2] – سورة آل عمران ، الآية 7 .

[3] – أخرجه الدارمي.

[4] – سورة فاطر ، الآية 28.

[5] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 32.

[6] – سورة يونس ، الآية 49.

[7] – سورة يونس ، الآية 3.

ثمّ يقول كذلك : « العبد من انقطعت آماله إلا من عند مولاه »[1].

في هذه الحكمة يوضّح لنا الشيخ أبو مدين أنّ العبد الحقيقي هو الذي لا ييأس من رحمة الله مهما كانت العقبات الّتي تواجهه في هذه الحياة ، فهو لا يقطع أمله من الله، ولا ييأس ، فهو يعرف حقّ المعرفة أنّ الله لن يتخلّى عنه ، فهو يتولاه ، و يتولّى الصالحين.

يقول الشيخ أبو مدين : « العبد ييأس من الفرح إلاّ من مولاه »[2].

فالعبد ليس له فرح إلا بالله ، وغير ذلك فهو معدوم بالنسبة إليه لأنّ فرحه بالله غمر قلبه وليس فيه مكان للغير.

إنّ الله تعالى يقول لداود عليه السلام : « يا داود قل للصدّيقين بي فليفرحوا ، وبذكري فليتنعّموا »[3].

لقد أمر الله تعالى بالتوكّل عليه إذ يقول:﴿ وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[4] ، ويقول : ﴿ وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[5].

فالتوكّل هو سلوك الرسول ﷺ ، فهو دائم التوكّل على الله وخاصّة أثناء الغزوات التي خاضها مع الصحابة سواء كان منتصرا أو منهزما.

---

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 39.

[2] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج 1 ، ص 12.

[3] – المرجع نفسه ، ص 14.

[4] – سورة المائدة ، الآية 23.

[5] – سورة آل عمران ، الآية 123.

ج) حكمه في الزهد والقناعة :

يقول الشيخ أبو مدين : « الزهد عافية »[1].

الزهد عافية أي راحة للنفس ، كنـــاية عن تخفيف متاعب الحياة ، فقد قيل : « من زهد في الدنيا، هانت عليه المصائب ».

فالقلب إذا تخلّى عن حبّ الدنيا ، فكان قلبه معافى ، مهما كانت البلايا الّتي تعترضه، يقول في هذا المجال عبد القادر الجيلاني : « العارف بالله يحمل الوجود من عرشه إلى فرشه على شفر من أشفار عينه ، والمتباعد عن الله ، إذا تعلّقت بجناحه بعوضة ضجّ منها »[2].

يقول الشيخ أبو مدين : « الإياس راحة والقناعة غنى »[3].

فالإياس والقناعة صفتان حميدتان أنعمهما الله على عباده المتّقين ، فمن اكتسب هاتين الصفتين كان في راحة والناس في تعب ، فليس الغني من جمع المال ، فالغني هو من كانت القناعة من صفته.

يقول أيضا : « الطمع في الخلق شكّ في الخالق »[4].

فالطّمع في غير الحقّ ابتعاد عن الخالق وشكّ في خيراته وملكوته، ويضيف قائلا : «عزّ من قنع وذلّ من طمع ».

---

[1] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 28.

[2] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج2 ، ص 27.

[3] – المرجع نفسه ، ص 27.

[4] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1، ص 31.

إنّ الله سبحانه وتعالى يرزق كلّ واحد ، حسب ما يستحقّه ، وذلك لحكمة في خلقه يجهلها أغلب الناس ، فهنا تجب الثقة بالله والنظّر إلى من دوننا حتّى تستريح أنفسنا، يقول عزّ من قائل : ﴿ فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ * لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً * فِيهَا عَيْنٌ جَارِيَةٌ * فِيهَا سُرُرٌ مَّرْفُوعَةٌ * وَأَكْوَابٌ مَّوْضُوعَةٌ * وَنَمَارِقُ مَصْفُوفَةٌ * وَزَرَابِيُّ مَبْثُوثَةٌ ﴾[1] .

فهذا وعد من الله، فالله وعد الذين صبروا من الفقراء الصّالحين جنّات عدن يدخلونها قبل الأغنياء.

وقال أيضا : « من اشتغل بالدّنيا ابتلي بالذلّ فيها »[2].

أي من اهتمّ بالدنيا وأهمل الآخرة ، فقد ابتلي بالذلّ والهوان لأنّه صار أسيرا لها ، يتّبع هواه ، وقد ابتعد عن الله وعن ذكره ، يقول ﷺ : « تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم »[3] ، فإذا كان العبد كلّ همّه هو الدّرهم ، فقد انحطّ للدّينار وأصبح له ، فهو في انحطاط دائم.

فالدنيا بالنسبة للمؤمنين والمخلصين زائلة لا محالة ، لقوله ﷺ : « اعمل لدنياك كأنّك تعيش أبدا ، واعمل لآخرتك كأنّك تموت غدا ».

وقال أيضا : « من تزيّن بزائل فهو مغرور »[4].

---

[1] – سورة الغاشية ، الآية 10-16.

[2] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 21.

[3] – رواه البخاري من حديث أبي هريرة.

[4] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 21.

فالمتزيّن بالدنيا من مال وجاه ومنصب ورقيّ ، فهذه الأشياء زائلة ، فهي في الآخرة لا تنفع لا مال ولا جاه إلا الأعمال الصّالحات لقوله تعالى : ﴿ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ ﴾[1].

ويقول أيضا : « الزهد فضيلة وفريضة وقربة ، ففضيلة في المتشابه ، وفريضة في العوام ، وقربة في الحلال »[2].

وقال كذلك : « الزهد العزوف عن الدّنيا ، والإعراض عنها لحقارتها ، فتركها لاستصغارها وهوانها »[3].

فالعبد الذي يزهد في هذه الدنيا ويعرض عنها ، ويعزف عنها ، فذلك لحقارتها وانحطاط شأنها ، فالدّنيا بالنسبة للمؤمن فانية ، فينظر إليها بعين الإيمان والتقوى ، فيكون فيها كعابر سبيل نظرا لبشاعتها ووحشيتها ، والعزوف عن الدنيا سمة المؤمنين المخلصين ، والعارفين ، والتلذّذ بملذّاتها وبزينتها سمة الجاهلين، وقد قال تعالى في وصفها: ﴿ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾[4]، وقال : ﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ ﴾[5].

---

[1] – سورة الرعد ، الآية 14.

[2] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 128.

[3] – المرجع نفسه ، ص 128.

[4] – سورة الأنعام ، الآية 32.

[5] – سورة الحديد ، الآية 20.

وقال أيضا : « من أعرض عن الأعراض أدبا فهو الحكيم المتأدب »[1].

في هذه الحكمة يوضح لنا أبو مدين أن الحكيم المتأدب هو الذي يعرف كيف يعرض أي يعزف عن ملذات الدنيا بطريقة لبقة ، أي بحسن الأدب والمتأدّب، أي يجب أن يكون حكيما لبيبا ، قال ﷺ : « الحكمة ترفع العبد المملوك ، وتجلسه مجالس الملك ».

وهكذا نلاحظ أنّ الشيخ أبا مدين اهتمّ اهتماما كبيرا بالزّهد، فقد تحدّث عن أسس التصوّف، واعتبر أنّ الزّهد أحد الأسس، وبدونه لا يكون التصوّف.

د) **حكمه في الخشية والمراقبة :**

يقول الشيخ أبو مدين : « الحق سبحانه مطّلع على السرائر والظواهر في كلّ نفس وحال »[2].

إنّ الله سبحانه وتعالى يعرف كلّ سرائر النفس سواء ظاهريا أم باطنيا ، فيجب على المؤمن أن يحذر الله سبحانه وتعالى لأنّ الله يراقبه في كلّ أعماله.

فالله يحمّل القلوب طاقتها، إذ يقول في هذا المجال: ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ﴾[3]، فلهذا نلاحظ أنّ القلب المليء بمحبة الله حتّى وإن مرّت عليه مصائب الدّنيا والمحن ، فلا تؤثّر فيه ، فالله يحفظه من كلّ هذه الطوارئ.

ثمّ قال: « الخوف إذا سكن القلب أورثه المراقبة »[4].

---

[1]- العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 50.

[2]- المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 169.

[3] - سورة البقرة ، الآية 286.

[4] - المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 173.

إنّ الخوف سوط الله، فإذا سكن القلب أورثه المراقبة، فإذا كان العبد يخاف ربّه فإنّه دوما في مجال المراقبة، أي يراقب كلّ أعماله وتصرفاته، فكلّما ازداد قوة ازداد خشية.

ثمّ يضيف قائلا: « الخوف سوط يسوق ويعوق، يسوق إلى الطاعة ويعوق عن المعصية »[1].

إنّ الخوف سوط الله في أرضه للمؤمنين ، فإذا امتلأ قلبه خوفا من الله عزّ وجلّ ، فهذا دليل على رضا الله عليه ، وذلك لما يروى في الأحاديث القدسية : «وعزّتي وجلالي لا أجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ، إذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة ، وإذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة » [2].

وقال أيضا : « من لم يجد في قلبه زاجرا فهو خراب »[3].

في هذه الحكمة يوضّح لنا الشيخ أبو مدين صفة القلب وهو خراب أي خال من ذكر الله ، فإذا كان القلب على هذه الشاكلة ، فلا غرو أنّ مآله هو الخسران لأنّه لم يقم بواجب الهداية والإرشاد ، يقول الرسول ﷺ في هذا المضمار : « إنّ في بني آدم مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه ، وإذا فسدت فسد الجسد كلّه ، ألا وهي القلب »[4].

وقال أيضا : « الحمية في الأبدان ترك المخالفة بالجوارح »[5].

---

[1] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 173.

[2] – رواه ابن المبارك.

[3] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 175.

[4] – رواه البخاري ومسلم.

[5] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 176 .

فالحمية هي ترك المخالفة بالجوارح خشية الوقوع في المحارم ، فعلى الإنسان أن يبتعد عن المحارم والمخاطر لقوله تعـــالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا ﴾[1].

ثمّ يقول كذلك : « حلية العارف الخشية والهيبة »[2].

الخوف حصن المريدين والمؤمنين ، فالعارفون بالله تفرقهم الخشية وتجمعهم الهيبة ، قال ﷺ في هذا المضمار : « إنّي لأقربكم من الله وأشدّكم منه خشية ».

ثمّ يضيف قائلا : « من عرف الله استعاذ به في اليقظة والنوم »[3].

هذه الحكمة توضّح لنا أنّ كلّ مؤمن عرف الله حقيقة المعرفة لا يستعيذ بغيره، فهو يخشاه في اليقظة والنوم ، فمنام العارفين ليس راحة ، بل هو أمر ونهي لقوله ﷺ : « نحن معاشر الأنبياء تنام أعيننا ولا تنام قلوبنا »[4].

هـ) حكمه في نهيه عن صحبة الأشرار :

قال الشيخ أبو مدين : « دليل تخليطك صحبة المخلطين ودليل وحشتك أنساك بالمستوحشين »[5].

وقد قيل في هذا المجال : « قل لي من تخالط أقول لك من أنت ».

---

[1] – سورة التحريم ، الآية 6.

[2] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 178.

[3] – المرجع نفسه ، ص 181.

[4] – المرجع نفسه ، ص 185.

[5] – المرجع نفسه ، ص 73.

وقد وردت أمثلة كثيرة في هذا السياق ، ولعلّ من أبرز هذه الأمثلة ما يروى عن بعض الصوفيين إذ قال بهذه المناسبة : « كنت سائحا وإذا بغراب وحمام يمشيان فتعجّبت من ذلك لفقد المجانسة ، وقلت : إنّ الأطيار تقع على أجناسها ، أين المجانسة ؟ ثمّ تقدّمت إليهما لإزالة اللّبس فلمّا وقع بصري عليهما، وجدت كلا منهما مكسور الجناح، فظهر أنّ الرابطة موجودة وهي نفس الكسر ، ولو لم تكن المناسبة (أي الكسر)، لمّا استأنس كلّ منهما بصاحبه ، فحذار ومخالطة أقران السوء. فهي أشدّ بأسا من صحبة الشياطين ، فلا تجالسهم حتى ولو كانوا أقرباءك لأنّ الأقارب عقارب ، كما يقال ، فإذا استأنست بجمالهم ، فلا محالة تسرقك سيرتهم ، فلو صدقت الله لقرّرت من أقران السوء، قرار الذئب من الأسد ».[1]

فهذا دليل واضح على أنّ صحبة أصحاب السوء والأشرار فيها مفسدة للإنسان الصالح لأنّها تضرّ إيمانه ، فتزعزع ثقته بالله وإيمانه به بسبب مخالطته لأصحاب الإيمان الضعيف والمنكرين لقوة الله ولملكوته ، فهنا ينصحنا الشيخ أبو مدين بضرورة الابتعاد كلّ البعد عن هذا الصنف من البشر ، لأنّه الهلاك بعينه ، والأمثلة الّتي أوردناها في هذا السياق دليل واضح على حكمة الشيخ.

- وقال أيضا : « احذر صحبة النساء اتّقاء على قلبك »[2].

هنا يحذّرنا الشيخ أبو مدين من مضرة صحبة الجنس اللطيف أي النساء لأنّها سمّ قاتل ولعلّ حديث الرسول ﷺ لأبرز مثال على ذلك إذ يقول : « ما تركت لأمّتي فتنة أشدّ من فتنة النساء » ، لأنّ المرأة تثير الفتنة ، بل هي كلّها فتنة مشعلة

[1] - المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 73.

[2] - المرجع نفسه ، ص 78 .

للقلب ، يقول تعالى في هذا المجال : ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ ﴾[1] ، ما اختلى رجل بامرأة إلاّ همّت به وهمّ بها ، فمن أراد سلامة قلبه وإيمانه فليحذر مجالسة ومؤانسة النساء والنظر إليهنّ.

وقال أيضا : « نافخ الكير إنّ لم يحرقك بناره أذاك بشرره »[2].

هذه الحكمة مأخوذة من قوله ﷺ : « مثل جليس السوء نافخ الكير إن لم يحرقك بشرره علق بك من ريحه »[3].

فمجالسة نافخ الكير فيه ضرر وشر كبير ، فإنّ لم تلفحك شرارة ناره ، فقد أذاك برائحته الكريهة وبشرره ، وذلك لرضاك به في الجلوس معه ، فمثله كمثل أهل المخالفة والعصيان ، وقد قيل في هذا السياق : « فمن جالس العطّار طاب بطيبه" و"من جالس العداد نال السوائد ».

فلا يجوز مجالسة السفهاء ، وحتّى إنّ وقع ذلك فللهداية فقط ، وإن كان الرسول ﷺ - لا يجالسهم ولا يؤانسهم - ولَقَولُه تعالى أبرز دليل على ذلك إذ يقول: ﴿ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴾[4].

و) حكمه في الإخلاص :

يقول الشيخ أبو مدين: « ولا يكمل العمل إلا بالإخلاص والمراقبة »[5].

---

[1] - سورة النور ، الآية 30.

[2] - البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 45.

[3] - متفق عليه.

[4] - سورة الأنعام ، الآية 68.

[5] - المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 52.

في هذه الحكمة يوضّح ضرورة الإخلاص في العمل ، فالعمل بدون إخلاص لله هو مجرّد تعب لا يجني صاحبه من ورائه ثوابا ، لأنّه ليس في سبيل الله ، يقول ﷺ في هذا المجال : « اعبد الله كأنّك تراه » ، فإذا كان عمل الإنسان لمجرّد العمل فقط أي ليس ابتغاء وجه الله ، فسوف يؤدّي به حتما إلى الهلاك.

وقال كذلك: « علامة الإخلاص أن يغيب عنك الخلق في مشاهدة الحق »[1].

فالإخلاص الذي يتحدّث عنه الشيخ أبو مدين هو الذي يتماشى مع الكتاب والسنة ، يقول الرسول ﷺ : « ثلاث لا يغفل عليهن قلب مسلم : إخلاص العمل لله ومنا صحة ولاة الجور ، ولزوم جماعة المسلمين ».

وقال أيضا : « من لم يصلح للمعرفة شغل برؤية الأعمال »[2].

أي من أغفل معرفته بالله عزّ وجلّ اشتغل بالأعمال الدنيئة وغير الصّالحة ، فمعرفة الله هي تحفة إلهية يهبها الله لمن يشاء من عباده.

وقال أيضا : « انكسار العاصي خير من صولة المطيع »[3].

في هذه الحكمة، يوضّح لنا الشيخ أبو مدين أنّ الطاعة تتماشى مع انكسار القلب والتذلل لله تعالى لقوله : « أنا عند المنكسرة قلوبهم ».

وقوله كذلك : « لا ينفع مع الكبر عمد، ولا يضرّ مع التواضع بطالة »[4].

---

[1] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 57.

[2] – المرجع نفسه ، ص 65.

[3] – المرجع نفسه ، ص 68.

[4] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج2 ، ص 68.

أي إذا كان عمل الإنسان نابعا عن تكبّر، فهذا العمل يعتبر معصية، وكذلك البطالة مع التواضع فهي معصية، وقد قبل في هذا المعنى: « من تواضع لله رفعه ، ومن تكبّر خذله الله »[1].

فالشيخ أبو مدين يوصي بعدم التكبّر لأنّه مفسدة للعمل ، فالمتكبّر لا يصلح إلا للنّار لأنّها مكان المتكبّرين ، يقول تعالى في سورة الإسراء : ﴿ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً ﴾[2] ، وقال تعالى في بعض الأحاديث القدسية : « لا يدخل جنّتي من لم يتواضع لعظمتي » ، ويقول ﷺ : « لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر... »[3] .

ويقول الشيخ أبو مدين: « العبادة تنجيك من طغيان العلم والزهد »[4].

ويقول ﷺ في هذا المعنى : « العلم علمان علم اللسان فذلك حجّة الله على ابن آدم، وعلم القلب ، فذلك العلم النافع ».

إذا لم يتّصف العلم بالعبودية، فيعتبر خروجا عن العلم المشروع الممدوح في الإسلام ، فيجب على صاحب العلم أن يتّصف بالتذلّل والانكسار ، يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾[5].

---

[1] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج2 ، ص 70

[2] – سورة الإسراء ، ص 37.

[3] – رواه مسلم من حديث ابن مسعود.

[4] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 129.

[5] – سورة فاطر ، الآية 28.

ز) حكمه في المحبّة والاشتياق :

يقول الشيخ أبو مدين: « المهمل من الأحوال والأعمال لا يصلح لبساط الحق»[1].

في هذه الحكمة يبيّن لنا الشيخ أبو مدين أنّ الإنسان الكسول المهمل للفرائض والعبادات لا يصلح لنشر الحق المبني على الجدّ والاجتهاد.

ويقول أيضا : « فالمقرّب مسرور بقربه والمحبّ معذّب بحبّه »[2].

سئل عبد القادر الجيلاني عن المحبّة فقال : « هي تشويش بالقلب يقع من المحبوب ، فتصير عليه الدّنيا ضيّقة كحلقة خاتم والحبّ سكر لا صحو معه ، وقلق لا سكون فيه ، فالمحبّون سكارى لا يصحون إلا بمشاهدة محبوبهم ، حيارى لا يأنسون إلاّ به ، ولا يلهجون بغير ذكره » ، كقول مجنون ليلى :

لقد لا مني في حبّ ليلـــى أقـــاربـــي أخي وابن عمّي وخالي وخاليا

فلو كنت أعمى أحيط الأرض بالعصا أصمّ فنادتني أجيـــب المنايـــا[3]

فهذا هو حال المحبّ متعذّب في حبّه ، وأمّا المحبوب فهو متنعّم بقربه ، يقول تعالى : ﴿ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ * الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ ﴾[4] ، وقال كذلك : ﴿ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾[5] ، فهذا هو الحبّ إذا بالغ فيه صاحبه ، لأنّ المحبّ لا راحة

---

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 75.

[2] – المصدر نفسه ، ص 67.

[3] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج2 ، ص 84 .

[4] – سورة الهمزة ، الآية 6-7.

[5] – سورة البقرة ، الآية 286.

له دون لقاء محبوبه ، فالمحبّة لا يحسّ بها إلاّ من تجرّعها ، فهي أشدّ من نار الجحيم ، ومن بعدها جنّة النعيم إلى جنّة القرب والمشاهدة ، لذا يجب على المحبوب أن يعطف على حبيبه إنّ صدق في حبّه.

وقال أيضـــا : « فقد الأسف والبكاء في مقام السلوك علم من أعلام الخذلان»[1].

في هذه الحكمة يبيّن لنا الشيخ أبو مدين فائدة البكاء والحزن ، فالمؤمن دائما يتأسّف على ما فات لما ضيّعه من أعمال صّالحة ، فالذي لا يتأسّف على ما فات ولا يستعدّ لما هو آت فهو حيّ ميّت ، بل هو مثل البهائم ، "لهم قلوب لا يعقلون بها".

ويضيف قائلا : « المحبّة الأنس بالله والشوق إليه »[2].

إذن في هذه الحكمة يتبيّن حقيقة الحبّ أو المحبّة ، وهي محبّة الله والأنس به ، فحبّ الله امتلأ قلبه لدرجة أنّه صار يطلب الوصول إليه ، والحضور معه والأنس به، فكما المحبّ في شوق إلى لقاء المحبوب ، فالعارف كذلك في شوق إلى لقاء الله ، والشوق ينتهي بملاقاة الحبيب وأمّا الاشتياق فيزداد صاحبه بعد الوصول إليه لهيبا ، فالأوّل معذّب في حبّه والثاني مع وجود اللهب يتنعّم بقربه.

ويضيف قائلا دائما في مجال المحبّة والاشتياق: « إيّاك أن تميل إلى غير الله فيسلبك الله لذّة مناجاته »[3].

---

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 36.

[2] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج1 ، ص 42.

[3] – العالم الرباني سيدي أبي مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 130.

الميل هو الانجذاب إلى الشيء ولو قليلا ، لكن بالرّغم من ذلك فالله يحفظ العارف من الميل إلى غيره ، ولو قليلا ليحفظه من متاعب الحياة ، ويثبّته في محبّته لقوله تعالى في سورة الإسراء مخاطبا النبيّ ﷺ : ﴿ وَلَوْلَا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴾[1].

ثمّ يقول أيضا : « جعل الله قلوب أهل الدّنيا محلا للغفلة والوسواس وجعل قلوب العارفين محلا للذكر والاستئناس »[2].

جعل الله للقلب وجهة واحدة وهي التوجّه إلى الله ابتغاء مرضاته ، فالقلوب الّتي لا تميل إلى الله فهي قلوب الدنيا تمتاز بالغفلة والوسواس. فقلوب العارفين مليئة بذكر الله والاستئناس به ، فهي مليئة بالحكم الإلهية أودعها الله فيها ، أمّا قلوب أهل الدّنيا فهي محلّ الوساوس والغفلات، فأصبحت قلوب بها حميّة وابتعدت عن القلوب الإنسانية، يقول الله تعالى : ﴿ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾[3].

ثمّ يضيف قائلا : « وطلب الإرادة قبل تصحيح التوبة غفلة »[4].

في هذه الحكمة يبيّن لنا الشيخ أبو مدين أنّ أيّ عمل صادر عن المريد لم يتب فلا منفعة من ورائه، إذن على المريد أن يجزم بعدم العودة إلى أخطائه وذلك حتى

[1] – سورة الإسراء ، الآية 74.

[2] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 25.

[3] – سورة الفرقان ، الآية 44.

[4] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج2 ، ص 112.

يتوب توبة نصوحا، ويجزم ألا يعود إلى القيام بأيّ عمل غير صالح ، ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ ﴾[1] .

ح) **حكمه في أقوال القوم بعد فنائهم** :

يقول الشيخ أبو مدين: « الحديث ما استدعيت من الجواب، والكلام ما صدقت من الخطاب »[2].

إذا أراد الإنسان أن يتكلّم، فيجب ألاّ يتحدّث إلاّ بما يعود عليه بالصدق، حتّى لا يكون فتنة على من سمعه، قال بعض الصحابة للنبي ﷺ : « أأحدّث بكلّ ما أسمع منك يا رسول الله ؟ فقال إلاّ بحديث لم يبلغ عقول القوم ، فيكون على بعضهم فتنة ، أتريدون أن يكذّبوا الله ورسوله » ، فيجب على المريد أن لا يتكلّم إلاّ بما يعود عليه بالنفع ، ولا يذكر كل ما عنده من علم ، فإنّ ذلك يعتبر جهلا منه، فهو ليس بحكيم.

إذن يجب على المؤمن أثناء الحديث أن يكون حكيما لبيبا ، يخاطب الناس حسب عقولهم ومستوياتهم ، فالناس طبقات متفاوتة ، هناك المتكلّم ، المثقّف ، الجاهل ، الأميّ ، إذن فيجب إظهار العلم شيئا فشيئا ، ليس دفعة واحدة ، حتّى لا يتعرّض للضرر.

فهنا يبيّن لنا الشيخ أبو مدين أن يكون المؤمن صادقا في كلامه ويجبّ اتّباع سيرة النبي ﷺ كما فعل الصحابة ، فبالرّغم من عظمتهم وقوة إيمانهم إلاّ أنّهم كانوا

---

[1]- سورة البقرة ، الآية 222.

[2]- المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج2 ، ص 112.

لا يتكلّمون إلاّ بمقتضى الحال أي حسب الظروف ، فقد كتموا الأسرار وصانوها ، يقول ابن عربي الخاتمي في هذا المعنى : « لا ينبغي للعالم أن يلقي كلمة إلاّ في قلب محتاج ما عطشان ، فإن لم يجده ، فليتربّص حتّى يجد لعلمه حاملا ، وليصبر صبرا شديدا ، ولا يضع العسل في قشر الحنظل »[1].

فمثلا القرآن الكريم لم يترل دفعة واحدة ، بل الآية تلو الآية ، حسب الظروف والوقائع ، قال تعالى لنبيّه ﷺ : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[2].

أمّا بالنسبة للمريد أو العارف كما يصفه الشيخ أبو مدين، فالحقيقة ترد عليه دفعة واحدة مثلا الكرامة، فهنا ينبغي عليه أن يوظّفها حسب المكان والزمان، وأن يأخذ بعين الاعتبار أحوال الحاضرين ، حتّى يكون مثل الذين يصفهم الله تعالى : ﴿ أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[3].

يضيف الشيخ أبو مدين قائلا : « أنفع الكلام ما كان إشارة عن مشاهدة ، أو نبأ عن حضور »[4].

في هذه الحكمة يوضّح لنا أنّ الكلام النّافع هو ذلك الكلام الصّادر عن لسان ذاكر الله ، بخلاف الكلام الصّادر عن غيره ، فالكلام الصّادر عن ذاكر الله له

---

[1] – المواد الغيثية ، مصطفى العلاوي ، ج2 ، ص 179 .

[2] – سورة طه ، الآية 114 .

[3] – سورة المجادلة ، الآية 22 .

[4] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 85.

تأثير على السّامعين ، وبالتالي على قلوبهم وعقولهم ، لأنّه ناجم من حضرة الله بالحضرة الإلهية ، فله سلطة قويّة على السّامعين والحاضرين.

فالمؤمن الصّادق التقيّ لا ينطق إلا ما قاله الله ورسوله ، فلا يتكلّم إلا بذكر الله ، ولا يتحرّك إلا بالله ، فالله يملأ قلبه وعقله.

ويقول أيضا : « الحقّ سبحانه تعالى يجري على ألسنة علماء كلّ زمان ما يليق بأهله »[1].

في هذه الحكمة يبيّن لنا الشّيخ أبو مدين دور العلماء في هذه الحياة ، فالعلماء ورثة الأنبياء ، وذلك لثقل المسؤولية الملقاة على عاتقهم ، من أجل نشر العلم ونبذ الجهل بين النّاس ، لأنّهم أولى بهذه المهمّة ، فهم مكلّفون بإظهار الحقّ وتنوير النّاس ونبذ الجهل والظلام، لذا يجب عليهم اتّباع كلّ أحكام القرآن الكريم ، والقرآن الكريم لأكبر معجزة نزلت على نبيّنا محمّد ﷺ ، فهذا الكتاب العزيز فيه كلّ القوانين الّتي تسيّر الكون، فهو صالح لكلّ الأزمنة والأمكنة ، ويحتوي على كلّ الأسرار سواء علمية أو فلكية أو دينية ، لذا فالعلماء عند الله هم الذي أخذوا بقواعد الشريعة أمّا سواهم من العلماء فقد أخذوا بظاهر الكتاب فقط دون بذل جهد لمعرفة صيرورة الكون وما احتوى عليه القرآن الكريم ، إذن فعلماء الله هم الذين عملوا بسنة الله ورسوله ، فالحقّ يجري على ألسنتهم في كلّ زمان - حسب الكتاب والسنّة - ولو تأمّلنا معجزات الرّسل والأنبياء للاحظنا أنّ كلّ معجزة تليق بالزّمن الذي ظهرت فيه دون بقية الأزمنة ، فالقرآن الكريم الذي يعتبر أعظم معجزة نزل لصيرورة هذا الكون ، فهو يشتمل على أسرار غريبة بعضها ما زال غامضا حتى

[1] - البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 6.

يومنا هذا ، أي لم يحن الوقت بعد لظهورها ، فلو أظهرها الله على ألسنة العلماء لكانت فتنة على الخلق ، فكلّ آية وكلّ سورة لها زمانها المخصّص لظهورها، فلا تظهر قبل أوانها ، يقول الله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾[1].

[1] – سورة طه ، الآية 114.

الفصل الثالث

المقومات الفنية لنثر

أبي مدين شعيب

1) اللغـــة :

يجدر التنبيه بادئ ذي بدء ، إلى أنّ الأدب الصوفي هو ميزة خاصة فقط بالصوفيين ، وهو أدب رفيع ومجاله واسع ، يحتوي على عاطفة صادقة وتجربة عميقة.

وهذا الأدب يستمد أفكاره ومعانيه من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، وهذا الأدب العميق هو أثر إبداعات العقل الصوفي ممثلة خاصة في الحكم والنصائح والمواعظ والعبر والمناجاة وغيرها من الأغراض الفنية[1].

فالأدب الصوفي يتميز ببلاغته وروعته ووضوح أساليبه وجمال ألفاظه ، وحسن صياغته وسهولة تراكيبه ، وبروائع ما اشتملت عليه من التمثيل والتشبيه والخيال والتصوير وبحسن اقتباسه من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف[2].

والواقع أنّنا إذا تأمّلنا أدب الصوفية شعرا ونثرا وجدنا رمزا غريبا ، ونمطا عجيبا ، وبعدا عن التصريح ، وإيثارا للتلويح ، واعتمادا على الإشارة... ودرجات بعيدة بين المعاني الحقيقية والمعاني اللزومية لا يكاد يفهمها فاهم ، ولا يصل إلى جوهرها حالم[3].

---

[1] – نشأة وتطور الأدب الصوفي في المغرب الأوسط ، طاهر بن نبي ، جامعة مسيلة ، مجلة حوليات التراث.
– الموقع على الأنترنت : http://anales.univ-mosta.dz/texte

[2] – الأدب في التراث الصوفي ، عبد المنعم خفاجي ، ص 113.

[3] – مع مقاربات التصوف وقفة مع المقاربة اللغوية –اللغوية المصطلحية– ، أحمد غاني (أستاذ باحث في أصول الفقه) ، مجلة الإشارة.
– الموقع على الأنترنت : http://www.tariqua.orga/Ishara/n28

فهو في الحقيقة فنّ من فنون الأدب كالوصف والغزل والمدح والرثاء ، والأدب الصوفي مجراه الشعر في الأكثر والنثر في الأقل ، وهو في صورته الشعرية والنثرية فنّ وجداني خالص يكتب عادة تحت تأثير العنصر الشخصي ، وليس نتيجة بحث موضوعي مجرّد[1]. وأنواعه هي : أدب الحكمة - أدب الزهد في الدنيا - أدب النصح والوصايا - أدب الدعاء - أدب المناجاة - أدب النفس عند الصوفيين.

واللغة : هي مادة العمل الأدبي بما يحمله من صور ومشاعر وأخيلة ، فهي الظاهرة الأولى فيه ، لأنّه يستخدم اللّغة أداة للتعبير « فاللغة هي النافذة الّتي من خلالها نطل ، ومن خلالها نتنسم ، هي المفتاح الذهبي الصغير الذي يفتح كل الأبواب ، والجناح الناعم الذي ينقلنا إلى شتى الآفاق »[2]. فاللغة ليست مجرد ألفاظ أو معان فحسب ، ولكنها تحمل إلى جانب ذلك الكثير من الجوانب الموسيقية والوجدانية والخيالية ، إضافة إلى ألوان الرمز والإيحاء والإيجاز.

ويمكن أن نختصر اللغة في عدّة معان وهي :

- المعنى وما يتضمن من حقائق ، ويثير من خيال.

- الوجدان وما يحمله من حقائق وذكريات في نفوسنا تكون ملفقة بالمعاني وما يحيط بها من حالات وجدانية أو انفعالية في نفسية الكاتب أو القارئ أو السامع.

---

[1] - التصوف في الإسلام ، عمر فروخ ، دار الكتاب العربي ، د.ط ، بيروت ، 1401هـ/1981م ، ص 95.

[2] - الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا وتطبيقا ، ج1 ، أحمد علي دهمان ، دار طلاس للدراسات والترجمة ، الطبعة الأولى ، سنة 1986 ، ص 45.

– الهدف الذي يقصده المتكلم ، وذلك لتصوير أفكاره ، والتعبير عما يجول بخاطره من معان وأفكار ، يهدف إلى إظهار وجهة نظره أو موقفه والألفاظ هي الّتي تحمل في طياتها كل هذه الحالات والمعاني والرموز فتترجم في سحر وجمال اللّغة.

فاللغة عبارة عن مجموع دلالات الألفاظ الداخلة في سياق ما ، والمتآزرة في سبيل تأدية هذا المعنى ، كما يعرفها عبد القاهر الجرجاني : « شحنة من العواطف الإنسانية والصور الذهنية والمشاعر الحية ، إلى جانب ما فيها من معنى عقلي مجرد»[1].

فاللغة هي وسيلة الأديب للتعبير والخلق ، وهي مادة الأدب الذي يخلق منها كائنا ذا ملامح وسمات ، متحركا ينبض بالمشاعر والأحاسيس ، كائنا يحمل صورة رائعة في غاية الأدب.

بيد أنّه لا بدّ من التنبيه إلى الفرق الموجود في الاستعمالين للّغة ، فهناك استعمال للغة الشعر ، واستعمال للغة النثر.

فالشعر يختلف عن النثر من حيث استخدامه للألفاظ كما يؤكده الناقد الإنجليزي المعاصر "رتشاردز " ، فالأفكار في الشعر محدّدة ، لكن الشاعر يستعمل عدّة وسائل وطرق كنغمات صوتية ، أو الإيقاع الشعري فتظهر لنا لغة مكتنـــزة بالألفاظ ، وكأنّ الأفكار تتزاحم فيها وتشحن بعضها البعض ، أمّا إذا استعملها العالم أو الكاتب فإنّما يستعملها استعمالا منطقيا علميا ، وتعجز أن تضيف منظرا

[1] – الصورة البلاغية ، أحمد علي دهمان ، ص 47 – 48.

طبيعيا خلابا أو وجها إنسانيا جميلا ، ولكي تؤدي هذه الوظيفة الجمالية فإنّها تحتاج إلى كمّ هائل من الأسماء والمفردات[1].

فاستعمال الشاعر للغة هو استعمال انفعالي ، أمّا استعمال الكاتب أو العالم فهو رمزي ، ولهذا نلاحظ في التأليف العلمي الاستعمال الرمزي ، أمّا في الشعر ، فالاستعمال الانفعالي هو السائد ، فالاستعمال الأوّل يكون لتنظيم الإشارات الذهنية وتوصيلها ، بينما يكون الاستعمال الثاني للتعبير عن أحاسيس واتجاهات وإثارتها عند الآخرين[2].

فاللّغة عبارة عن مجموعة من العلاقات الحية المتناهية ، وليس مجرد وصف للألفاظ بلا تعلق فيما بينها ، وهذه العلاقات تظهر بالطريقة والكيفية الّتي يصاغ بها النص ، فالعمل الأدبي عبارة عن بنية لغوية ، ولكن هذه البنية اللّغوية هل هي تعبير عن وجدان داخلي ، أم هي إشارة إلى شيء خارجي. وهنا يوضح لنا "كاسير" مفهوم اللغة «فاللغة عنده رمز لا تعبير ، والرمز مجرد تسهيل لشيء ما في خارجه ، اللغة تستوعب الاتجاه الذاتي والموضوع الخارجي في كل أكبر منهما »[3].

ولكن اللغة ليست رمزا فقط ، إنّها رمز وتعبير في آن واحد ، بل هي كما يقول " النوبهي " « تعبير قبل أن تكون رمزا وبالمعنى الفني للرمز لا بالمعنى العلمي له»[4].

---

[1] – الصورة البلاغية ، أحمد علي دهمان ، ص 57.

[2] – المرجع نفسه ، ص 59.

[3] – المرجع نفسه ، ص 90.

[4] – المرجع نفسه ، ص 90.

إنّ نظرة الصوفيين إلى اللغة نظرة مختلفة تماما عن نظرة الأدباء أو الكتاب ، فبالنسبة لهم اللغة تعجز عن حمل معانـــي وحقائق الكشوفات الإلهية والخوارق والكرامات والأمور الغريبة الّتي تحصل لهم ، كل هذا دفعهم إلى التخاطب بالرموز والإشارات الخاصة بالمتصوفين فقط ، وطالت رموزهم كل شيء حتّى أصبحت اللغة هي الرمز في ذاته. وكل حرف يمثل رمزا معينا ، وهكذا نجد الرمزية شاعت شيوعا كثيرا في كتابات الصوفية نثرها وشعرها ، وقد يكون الصوفية مضطرين إلى استعمال الرمز لأنّ الحاجة اضطرتهم لذلك ، لأنّهم يعبـــرون عن معـــان ومشاهد وإحساسات نفسية لا عهد للغة العادية بها ولا بالتعبير عنها.

هذا وبلغ الشيخ أبو مدين بفضل علمه واجتهاده وورعه قمة عالية في علمي الشريعة والحقيقة ، ووفق في الجمع بينهما ، فأصبح بذلك فقيها ، صوفيا له مكانة محترمة بين العلماء والمؤرخين ، وبعدّه البعض مدرسة يجب الأخذ بمنابعها ومعالمها ، إذ كان لها دور فعال في استقطاب الحركة الصوفية الكبرى الّتي شهدها المغرب العربي في بداية القرن السابع الهجري ، والّتي تخرّج منها علماء أجلاء كابن عربي والإمام الشاذلي ، وهذا بالرغم من أنّ تصوفه كان خاصا به ، أي لم يتأثر بالعلوم الكلامية والفقهية الّتي كانت منتشرة في عصر الموحدين ، بل كان إماما فقيها وشيخا صوفيا سنيا ، وهذا ما قاله شيخ الأزهر " عبد الحليم محمود " في كتابه " شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث " : « تثقف أبو مدين كأحسن ما يكون المثقف ، تثقف من مصادر أصلية ؛ القرآن الكريم ، السنن ، الأحياء ، الرعاية ، الرسالة

القشيرية ، إذ كان يصاحب في دراسته السنة النبوية الحارث بن أسد المحاسبي ، حجة الإسلام الغزالي ، الإمام القشيري ، ودرس الفقه ودرس التفسير»[1].

وللتعبير عما جادت به قريحة الشيخ من مؤلفات ومصنفات شعرية أو نثرية ارتأينا أن نقف على لغته الصوفية لنبرز مذهبه أو بتعبير أدق معجمه الفني.

والمعجم الصوفي ، أو المعجم الوظيفي ، ويقصد به ذلك المعجم الذي يستقي منه المتصوفة ألفاظهم للدلالة على مقامات وأحوال التصوف ، ويستدعي ذلك استعمال لغة اصطلاحية وظيفية تسمى الأشياء بأسمائها ، ولا تجنح إلى الاستعارة إلاّ من أجل التلميح، وعند الضرورة الملحة على اعتبار أنّ اللغة موضوع بعينه كالفلسفة أو علم الكلام أو الفقه أو النحو[2].

فالمقام كما يعرفه الطوسي معناه مقام العبد بين يدي الله عز وجل فيما يقام به فيه من العبادات والمجاهدات والرياضات والانقطاع إلى الله[3] ، قال الله تعالى : ﴿ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ﴾[4]. وقال : ﴿وَمَا مِنَّا إِلَّا لَهُ مَقَامٌ مَّعْلُومٌ﴾[5].

أمّا الأحوال « هو ما يحل على القلوب ، أو تحل به القلوب من صفاء الأذكار ، وقد قيل الحال هو الذكر الخفي استنادا إلى قوله ﷺ : « خير الذكر الخفي» رواه الطبراني[6].

---

[1] – أبو مدين الغوث ، عبد الحليم محمود ، ص 93.

[2] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، من منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق ، 2002 ، ص 10.

[3] – اللمع ، الطوسي ، المكتبة التوفيقية ، القاهرة ، مصر ، د.ط ، د.ت ، ص 45.

[4] – سورة إبراهيم ، الآية 14.

[5] – سورة الصافات ، الآية 164.

[6] – اللمع ، الطوسي ، ص 45.

والحال أو الأحوال لا تتمّ عن طريق العبادات والرياضات – كالمقامات ، وإنّما هي مثل المراقبة ، المحبة ، القرب ، الخوف ، الرجاء ، الشوق ، والأنس ، والمشاهدات ، والطمأنينة أي حالات نفسية يمرّ بها المتصوف[1].

فالمعجم الصوفي هو معجم خاص بالمتصوفة ، ويتضمن أحوالهم الّتي يعبرون بها والمقامات الّتي يسلكونها ، ونحاول فيما يلي إبراز بعض النماذج من نثر الشيخ أبي مدين وما تضمنته من مصطلحات صوفية يقول مثلا : « من نسب لحاله أو مقاما ، فهو بعيد عن طرقات ».

في هذه الحكمة وظف مصطلحين صوفيين مقام وحال.

ثمّ يقول « شاهد مشاهدته لك ولا تشهد بمشاهدته له » ، لقد وصف أبو مدين لفظة الفعل "شاهد" ، وهذا المصطلح الصوفي متداول بين المتصوفة ، فالشاهد « ما يكون حاضر قلب الإنسان ، وهو ما كان الغالب عليه ذكره ، حتّى كأنه يراه وإن كان غائبا به عنه »[2].

ومعنى الشاهد الحاضر.

يقول الشيخ في بعض حكمه : « المحبة الأنس بالله والشوق إليه ». لقد وظّف مفردتين هما : " المحبة " و"الشوق" وهما مصطلحين صوفيين ، « فالمحبة هي حالة شريفة، شهد الحق سبحانه بها للعبد ، وأخبر عن محبته للعبد ، فالحق سبحانه يوصف بأنّه يحب العبد ، والعبد يوصف بأنّه يحب الحق سبحانه »[3].

---

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 28.

[2] – المصدر نفسه ، ص 86.

[3] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 328.

فالمحبة عند الصوفيين هي : « محبة الحق سبحانه للعبد مدحه له وثناؤه عليه بالجميل ، فيعود معنى محبته له على هذا القول إلى كلامه ، وكلامه قديم »[1].

«وأمّا الشوق اهتياج القلوب إلى لقاء المحبوب، وعلى قدر المحبة يكون الشوق»[2]، وذلك لأنّ الشوق ثمرة المحبة ، ومعنى هذا الكلام أنّ الله تعالى لا يوصف بالشوق وإن وصف بالمحبة.

كما وظّف الشيخ أبو مدين مفردتين في إحدى حكمه إذ يقول : « اجعل الصبر زادك ، والرضا مطيتك، والحق مقصدك ووجهتك » وهما المصطلحين الصوفيين :

الصبر « التباعد عن المخالفات ، والسكون عند تجرع غصص البلية ، وإظهار الغنى مع حلول الفقر بساحات المعيشة »[3] ، و« الصبر هو الاستعانة بالله تعالى »[4]، يقول تعالى : ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللّهِ﴾[5]. فالصبر – كما قال أحدهم: « حبس النفس في موضع العبودية من الصبر ، مع نفي الجزع لأنّ ضدّ الصبر الجزع، فإذا قلت : نفى العبد الجزع فهو في مقام العبودية من الصبر »[6].

---

[1] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 328.

[2] – المصدر نفسه ، ص 329.

[3] – المصدر نفسه ، ص 184.

[4] – المصدر نفسه ، ص 184.

[5] – سورة النحل ، الآية 127.

[6] – الوصايا أو النصائح الدينية والنفحات القدسية، المحاسبي، دار الكتب العلمية، ط1، بيروت ، لبنان ، 1424هـ/2003 م ، ص 171.

أمّا الرضا « أن يبذل الإنسان جهده ليصل على ما يحبه الله ورسوله ، ولكنه من قبل الوصول إليه ، وفي أثنـــاء محاولاتـــه للوصول إليه مطمئن إلى النتيجة ، راض بها»[1].

فالرضا « باب الله الأعظم ، وجنته الدنيا »[2]، وهو أن يكون قلب العبد ساكنا تحت حكم الله عز و جل ، لقوله تعالى : ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾[3].

كما وظف لفظة " الفقر " في قوله « الفقر فقر ما دمت تستره ، فإذا أظهرته ذهب نوره »[4] ، وهي مصطلح صوفي متعارف عليه عند جميع المتصوفة.

فالفقر كما قال بعضهم « حقيقته أن لا يستغني إلاّ بالله تعالى ؛ أي الفقر لله ما دمت تستره بينك وبين الله ، لأنّه من أشرف الحالات ، ومن أعز المقامات ، ومن تظاهر بفقره ذهبت عنه الأنوار ، وبقي ، في الظلام « فالفقر يورث الرضا ، إذا تحقق العبد فيه»[5].

فالفقر : « شدّة الطمع ، وكثرة تذكرك ما فاتك مع قبيح الجزع ، فمن حلّ هذا المحلّ حلّ بالخسران والندم ، إذ قلبه معلّق بغائب لا يدركه ، ويطمع بلبسة مذلة»[6]

---

[1] – المنقذ من الضلال ، عبد الحليم محمود، ص 212.

[2] – اللمع ، الطوسي ، ص 57.

[3] – سورة آل عمران ، الآية 119.

[4] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 31.

[5] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 272.

[6] – المسائل في أعمال القلوب والجوارح ، المحاسبي ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1421هـ/2000م، ص 16.

كما وظف الشيخ أبو مدين مفردة " المراقبة " في حكمته التالية : « بالمحاسبة يصل العبد إلى المراقبة » ، وهي مصطلح صوفي.

فالمراقبة حال شريف لقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا ﴾ [1]، فبمحاسبة النفس في فعلها يرتفع العبد إلى حضرة القدس ، فيرى الحق حاضرا ، فيراقبه حق المراقبة، فالمراقبة « دوام علم القلب بعلم الله عز وجل في سكوتك وحركتك علما لازما للقلب، بصفاء اليقين وكشف غطاء حجب الظلم ، غير قاطع عن النظر بمشاهدة الغيب »[2].

ويقول بعضهم : « عليكم بحفظ السرائر فإنّه مطلع على الضمائر »[3].

فالمراعاة تورث المراقبة ، والمراقبة تورث حفظ السرّ والعلانية لله تعالى ، فعلى العبد أن لا يطالع أحدا ، ولا يراقب غير ربّه.

كما وظف كلمة " الزهد " في الحكمة التالية قائلا : « الزهد : العزوف عن الدنيا والإعراض عنها لحقارتها وتركها لاستصغارها وهوانها » ، والزهد مصطلح صوفي وهو « مقام شريف ، وهو أساس الأحوال الراقية ، والمراتب السنية وهو أوّل قدم القاصدين إلى الله عز و جل... لأنّ حبّ الدنيا رأس كل خطيئة والزهد في الدنيا رأس كل خير وطاعة »[4]، فالزهد : « متفاوت في قلوب الزاهدين ، فكل رجل منهم زهده على قدر معرفته ، ومعرفته على قدر عقله، وعقله على قدر إيمانه،

---

[1] – سورة الأحزاب ، الآية 52.

[2] – الوصايا ، المحاسبي، ص 196.

[3] – اللمع ، الطوسي ، ص 58 – 59.

[4] – المنقذ من الضلال ، عبد الحليم محمود ، ص 187.

فرجل استولى على قلبه وهمّه كشف علم الآخرة ، ونبّهه التصديق على القدوم عليها، وتبين لقلبه عوار الدنيا ، ودلّته بصائر الهدى على سوء عواقبها ، ومحبّة اختيار الله على تركها ، وموافقة الله عز وجل في العزوف عنها ، فرحلت الدنيا على قلب هذا الموفق »[1].

كما وظّف مفردة التوكل ، يقول الشيخ أبو مدين : « التوكل توكل بالمضمون واستبدال الحركة بالسكون ».

فلفظة التوكل هي مصطلح صوفي ، وهو مقام شريف ، فالحق هو الضامن لأرزاق العبد والتصديق له ، فإذا قال للشيء كن فيكون ، فكل شيء من المتحركات والساكنات في أقطار الأرض هي ملك للقهار لقوله تعالى : ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾[2] ، فالتوكل هو « الاعتصام بالله تعالى »[3].

« فالتوكل محله القلب ، والحركة بالظاهر لا تنافي التوكل بالقلب ، بعدما تحقّق العبد أنّ التقدير من قبل الله تعالى ، وإن تعسّر الشيء فبتقديره ، وإن اتفق الشيء فبتيسيره »[4]، لقوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾[5].

فالتوكل هو « الاسترسال مع الله تعالى على ما يريد »[6]، وهو : « التصديق لله جل وعزّ ، فيما أخبر من قسم وضمان الكفاية وكفالتها ، من سياقة الأرزاق

---

[1] – الوصايا ، المحاسبي ، ص 160.

[2] – سورة الطلاق ، الآية 3.

[3] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 162.

[4] – المصدر نفسه ، ص 163.

[5] – سورة إبراهيم ، الآية 12.

[6] – اللمع ، الطوسي ، ص 56.

إليهم ، واتصال الأقوات الّتي قسّمها في الأوقات الّتي وقتها ، بتصديق تقوم الثقة به في قلوبهم ، وتنتفي الشكوك عنهم والشبهات، ويصفو به اليقين، وتثبّت به حقائق العلم أنّه الخالق الرازق، المحي المميت، المعطي المانع، المتفرد بالأمر كله» [1]، لقوله تعالى : ﴿وَعَلَى اللّهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[2].

لقد انصب اهتمام الشيخ أبي مدين شعيب في مجال العقائد واتضح ذلك جليا في مصنف " العقيدة " ، ويعالج فيه منهجه المميز التوحيد ، والذات الإلهية والصفات مستمدا ذلك من العقيدة الإسلامية.

يقول الشيخ : « التوحيد أصل وهو مع كل دقيقة والوجود سرّ وهو ظل الحقيقة، والتوحيد أحصن كل شيء عددا وهو الباقي أزلا وأبدا ، الكافي لمن هو حسّه، فمن وفقه عمّر به قلبه ، هو المظهر للأشياء ، وبحياته كانت الحياة ، فالتوحيد ثمرة المعرفة، ولا ينال إلاّ بقلب الأخلاق »[3].

فمقام التوحيد هو الإقرار بالوحدانية ، تتلاشى الأشياء من قلبه وانفراده بالله عز وجل ، فالسماوات والأرض ، وكل ما خلق الله يتصاغر في عين المتصوف ، عندما يشاهد بقلبه التوحيد من عظمة الله عز وجل.

---

[1] – المسائل ، المحاسبي ، ص 121-122.

[2] – سورة المائدة ، الآية 23.

[3] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 302.

سئل عن الروح فقال : « سرّي مسرور بأسرار تستمدّ من البحار الإلهية الأدبية الأزلية الّتي لا ينبغي كشفها ، ولا يجوز بثها لغير أهلها ، وأبت الغيرة إلاّ سترها... هو سبحانه منطقها بكرمه ومجده وإن من شيء إلاّ يسبح بحمده »[1].

فالروح من يقول الحياة ، ومنهم من يقول : « إنّها أعيان مودعة في هذه القوالب (الأبدان) »[2]. فالإنسان هو الروح والجسد لأنّ الله سبحانه سخرها لبعضها البعض.

سئل عن المعرفة فقال الشيخ أبو مدين : « إذا تلاشت المعرفة بالمعروف صحّت المعرفة »[3] ؛ أي معرفة الله ، فلا سبيل إليها ، أي إلى معرفة حقيقة الله ، لأنّ الله تعالى أبرز لخلقه ، ومن أسمائه وصفاته ما يطيقونه ، لأنّ حقيقة معرفته لا يطيقها الخلق ، فالكون يتلاشى عند أوّل ذرة تبدو من بوادي عظمته ، يقول عزّ وجل : ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾[4].

فالمعرفة – كما قال بعض الصوفية – : « المعرفة طلوع الحق على محل الأسرار ، لمواصلة الأنوار »[5] ؛ أي أنّ الله يطلع على قلب العبد بتوالي أنوار معرفته حتّى لا ينساه في شيء من حالاته.

وسئل عن السر وعن الحقيقة فقال : « هو محل الأسرار ، وعند حقيقته عجزت الأوهام والأفكار وطاشت عقول ذوي الأبصار... جهل ذلك من جهله ،

---

[1] – محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، ابن عربي ، ج1 ، ص 370.

[2] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 88.

[3] – محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، ابن عربي ، ج1 ، ص 190.

[4] – سورة البقرة ، الآية 255.

[5] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 315.

وعلمه من علمه ، فلا يدرك الحق إلاّ الحق ، فالتشوق إلى هذا مما لا يدرك ، والخوض فيه واجب أن يترك »[1]. فسرّ السر لا يطلع عليه غير الحق.

يقول الشيخ -رحمه الله- : « إنّ جميع ما أدركته العلوم وألحقته الفهوم ، ما عبّر عنه وما أشير إليه مستنبط من حرفين من أوّل كتاب الله (بسم الله ، والحمد لله) لأنّ معناه بالله والله »[2].

وقيل لأبي عباس بن عطاء : « إلى ماذا سكنت قلوب العارفين ؟ فقال : إلى أوّل حرف من كتابه هو الباء من (بسم الله الرحمن الرحيم) فإنّ معناه أنّ بالله ظهرت الأشياء وبه فنيت ، وبتجليه حسنت... لأنّ في اسمه (الله) هيبته وكبرياؤه وفي اسمه (الرحمن) محبته ومودته ، وفي اسمه (الرحيم) عونه ونصرته »[3].

فكل اسم من أسماء الله تعالى يتخلق به إلاّ اسمه (الله) لقوله تعالى : ﴿ لَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾[4].

فاسم الله الأعظم هو "الله" ، فإذا ذهب الله يبقى " لله " ، وإن ذهب عنه اللام يبقى " له " فلم تذهب الإشارة ، وإذ ذهب اللام الآخر يبقى " ه " وجميع الأسرار في الهاء لأنّ معناه هو ، فجميع أسماء الله إذا ذهب عنه حرف واحد ولم يبق فيه موضع الإشارة ، من أجل ذلك لا يسمى به غيره تعالى[5].

---

[1] - محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، ابن عربي ، ج2 ، ص 257.

[2] - اللمع، الطوسي ، ص 89

[3] - المصدر نفسه ، ص 89.

[4] - سورة طه ، الآية 110.

[5] - اللمع ، الطوسي ، ص 90.

« فالألف هو أول حرف وأعظم الحروف ، وهو الإشارة في الألف ؛ أي الله الذي ألف بين الأشياء وانفرد عن الأشياء »[1].

فكل حرف من أحرف الله تعالى الموجودة في كتاب التنـــزيل إلاّ وله فهم يختلف عن الفهم الآخر ، أي يختلف من آية إلى أخرى ، فقوله تعالى : ﴿الم * ذَلِكَ. . . ﴾ [2] ، فالألف له تفسير مغاير لتفسير اللام ، وكل هذا يدخل في الإعجاز اللّفظي في القرآن.

ومن الحروف الّتي تجسد القدرة الإلهية هو حرف الباء ، يقول ابن عربي : «إنّه حرف من عالم الملك والشهادة القهر » ، فالباء هو الحرف الذي أعطى انطلاقة الوجود من خلال عبارة " بسم الله " ، يقول ابن عربي عن حرف الباء ورمزيته : « بالباء ظهر الوجود ، وبالنقطة تميز العابد عن المعبود ، قيل للشبلي (شيخ صوفي) أنت الشبلي ؟ فقال : أنا النقطة الّتي تحت الباء ، وقولنا النقطة للتمييز بين العابد والمعبود »[3].

أمّا في حديثه عن الشيخ أبي مدين فيقول عنه : « كان شيخنا وإمامنا – أبو مدين – يقول ما رأيت شيئا إلاّ رأيت الباء عليه مكتوبا » ، الباء رمز كل موجودات ، وهذا الكلام لا يفهمه إلاّ الصوفي[4].

---

[1] – اللمع ، الطوسي ، ص 91.

[2] – سورة البقرة ، الآية 1 – 2.

[3] – رسالة ماجستير ، أبو مدين شعيب ، دراسة أسلوبية لشعره ، كلية الآداب ، جامعة باتنة ، ص 19.

[4] – المرجع نفسه ، ص 19.

معنى هذا علاقة الصوفي بالأسماء الإلـــهية هي علاقة معرفية تتمّ عن طريق العقل -حسب ابن عربي – ثمّ ممارسة معنى هذا الاسم أو التحلي بمعناه ، كأن يكون الإنسان عادلا تجسيدا لاسم الله " العادل " ثمّ تأتي مرحلة الفناء الصوفي في الاسم الإلهي الّتي يتحقق فيها الاتصال بالله والابتعاد عن الخلق بفناء كلي ، يبطل شعور المتصوفة بكل ما حوله ، وتتعطل حواسه الظاهرة ، فلا يدرك في خارج نفسه شيئا ، حتّى ولو أصيب أحدهم بسهم ثمّ نُزع من جسمه لما شعر قط ، بعد هذا يفنى الفناء نفسه ويبطل شعور المتصوف بأنّه لا يدرك شيئا مما حوله ، وهذه المرتبة أعلى يدعوها المتصوفة باسم : "فناء الفناء"[1].

وهذا الفناء علم من العلوم الكشفية الّتي يتصف بها الصوفيون ، وهي كما وصفها الشيخ أبو مدين بأنّها أسرار لا تداع إلاّ لمن كان له باع في التصوف ، وكانت له قدم راسخة في مقام الفناء ، يقول : « أسرار تستمد من البحار الإلهية الّتي لا ينبغي بثها إلى غير أهلها ، إذ الإشارة تعجز عن وصفها »[2].

سئل الشيخ أبو مدين عن الأسماء الإلهية التالية : الله ، حسبي الله ، لا حول ولا قوة إلاّ بالله ، فأجاب قائلا : « أمّا هذا الاسم الذي هو " الله " فهو الاسم الأعظم الذي هو رأس الأسماء ، وإليه يرجع كل معنى ، وهو المنـــزه المتبوع الذي به ظهرت المخلوقات... أمّا " حسبي الله " هو أمن وأمان من أن تعدو عليّ النيران ، فمن تخلق به سلم وصفى ، أمّا " لا حول ولا قوة إلاّ بالله " هو التبري من باطن الأحوال ، وردها إلى ظاهر الأقوال والأفعال ، ثمّ ردها إلى ذي الكرم والجلال ،

[1] – التصوف في الإسلام ، عمر فروخ ، ص 55.

[2] – رسالة ماجستير ، أبو مدين شعيب ، ص 18.

فهذه وما عداها راجعة إلى الاسم الأعظم... هو نور السماوات والأرض ، فإذا تجلى من نوره دمعة كان الله ولا شيء معه »[1].

فاستعمال أبو مدين للغة استعمال صوفي محض مليء بالإشارات والرموز ، حتّى أصبحت اللغة الصوفية لها عالم خاص بها لا يفهمها من لم يتصوف ، فاعتبرت أسماؤها وحروفها عالم له مراتب وحقائق لا تدرك إلاّ بالكشوفات.

[1] – محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار ، ابن عربي ، ج1 ، ص 344.

2) الصورة :

الصورة مصطلح حديث نسبيا ، متعدّد المفاهيم ، تختلف تعريفاته باختلاف اتجاهات المدارس النقدية ، فقد تعني الإطار الخارجي الذي يوضع فيه الموضوع ، أو القالب الذي نصب فيه التجربة ، وقد تعني ما تعارف عليه البلاغيون وسموه علم البيان من استعارة وتمثيل وتشبيه وكناية وغير ذلك من الأنواع البلاغية[1].

فالصورة هي « وسيلة لنقل الفكرة والإحساس ، ويمكن تعريفها من المنظور النفسي على أنّها التذكر الواعي لمدرك حسي سابق ؛ أي استرجاع صورة منظر رآه إنسان أو صوت سمعه بعد أن يزول أثره المباشر على الحواس، وهذا بطبيعة الحال جزء من عمل الذاكرة وملكة التصوير »[2].

أمّا من الناحية الفنية فهي « التعبير عن تجربة حسية نقلت بطريق البصر أو السمع أو الشمّ أو اللمس أو الذوق ؛ أي أنّ بعض هذه الحواس أو كلّها مجتمعة تدرك عناصر التجربة الخارجية ، فينقلها الذهن بطريقة من شأنها أن تثير في صدق وحيوية الإحساس الأصلي ، وفي ظل هذا المفهوم قد تكون الصورة الواحدة تسجيلا لإحساس مفرد »[3].

ويعتبر كل من التشبيه والاستعارة والكناية وغيره من الأصناف البلاغية وسائل لتصوير المعنى وتنميقه وتصويره ، فالصورة هي ذلك السياق أو النمط الذي يعطي القيمة الفنية للصياغة ومدى ارتباط المعاني النحوية بالمعاني المجازية من تشبيه ،

---

[1] – الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني ، أحمد علي دهمان ، ص 265.

[2] – المرجع نفسه ، ص 276.

[3] – المرجع نفسه ، ص 277.

استعارة... ولذلك اعتبرت كل هذه المعاني جزءا لا يتجزأ من الصورة ، فهي تشكل العلاقات الأسلوبية بين الألفاظ وتفتح أمام القارئ آفاقا من التفكير والتحليل والعناصر التصويرية للمعنى ، فيمكن اعتبار هذه المعاني « الأقطاب الّتي تدور البلاغة عليها ، والأعضاء الّتي تستند البلاغة إليها والطلبة الّتي يتنازعها المحسنون ، والرهان الذي تجرب فيها الجياد... ولم يتغاض أحد من الناس إلاّ ذكرها وجعلها العمد والأركان فيما يوجب الفضل والمزية وخصوصا الاستعارة والإيجاز »[1].

فبالإضافة إلى كون الصورة البلاغية وسيلة فنية للصياغة أو لنظم فكرة فقدرتها تكمن - كما يعرّفها عبد القاهر الجرجاني - : « على نقل الفكرة والعاطفة بأمانة ودقة، والصورة هي العبارة الخارجية للحالة الداخلية ، وهذا هو مقياسها الأصيل ، وكل ما نصنعه بها من جمال وروعة وقوة ، إنّما مرجعه هذا التناسب بينها وبينما تُصور من عقل الكاتب ومزاجه تصويرا دقيقا خاليا من الجفوة والتعقيد ، في روح الأديب وقلبه ، بحيث تقرؤه وكأنّا نحادثه ، ونسمعه وكأنّا نعامله »[2].

ولكي تؤدي الصورة وظيفتها الفنية وجمالها الإحساسي الساحر ، يجب توفير بعض الوسائل :

- استعمال الكلمات المألوفة ، المحدودة المعنى ، العربية ، فذلك يفيد في وضوح الأفكار والصور واستقرارها في العقول ، وهنا لا تنفع الكلمات الأجنبية ، والألفاظ العامية بحجة أنّها تمثل ذوق الشعب ، بل العكس تخسر وظيفتها الجمالية.

---

[1] - الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني ، أحمد علي دهمان ، ص 413.

[2] - المرجع نفسه ، ص 428.

- استخدام الكلمات الوصفية الّتي تفيد في جمال وقوة الأسلوب ويراد بها صور المشاهد والحوادث الملفتة للنظر والمثيرة للإعجاب والمتعة.

- الاستعمال المجازي للكلمات أو وصفها بنعوت غريبة ، لكنها بطريقة خفيفة على السمع كقولهم المستحيلات الثلاث.

- الابتعاد عن الكلمات الضعيفة ، والكلام الفراغ والعبارات الزائدة ، الاكتفاء بأسس الكلام وخاصة في فنون الخطابة ، المناظرة ، والشعر والنثر الأدبي والأمثال والحكم[1].

تعتبر الصورة الفنية أحد أبرز المقومات البلاغية الّتي تجمع بين الأدب كفنّ والتصوف كسلوك روحي متقدا حرارة وانفعالا ، وما تحقق في تراثنا العربي الإسلامي من تجربة صوفية لابن العربي والحلاج والبسطمي وابن الفارض ، بالإضافة إلى أبي مدين شعيب خير دليل على ذلك ، فلم تكن مأثوراتهم الفنية أدبية محضة ، ولم يكن ذلك للإبداع الفني والجمالي ، وإنّما وسيلة لإيصال أفكارهم الروحية المتعلقة بذروة التصوف وانفعالاتهم الروحية ، فتبدو الصورة وكأنّها كائن حي يشع بالحياة والحيوية.

فإذا كان الفنّ الأدبي الصوفي هو ذلك الفضاء الذي تتعايش فيه المادة والروح «فالصورة الفنية هي تجسيد للمعنوي في هيئة المرئي الحسي وإخراجه من حيز التجريد»[2].

---

[1] - الأسلوب ، أحمد الشايب ، مكتبة النهضة المصرية ، ط 6 ، مصر ، سنة 1966 ، ص 196 – 197.

[2] - الصورة الفنية في الخطاب الشعري الصوفي ، نور الدين دحماني ، جامعة مستغانم ، مجلة حوليات التراث.
- الموقع على الأنترنت : http://anales.univ-mosta.dz/texte

والصورة في الإبداع الصوفي تقوم أساسا على المجاز.. أي بوصفه طاقة لتوليد الصور ، ممّا يتطلّب بالمقابل طاقة للقراءة ولتوليد المعاني ، حتّى تواكب القراءة حركية الإبداع[1].

ولإبراز العلاقة الموجودة بين موضوعات الشيخ أبي مدين والصورة ، نحاول الوقوف عند بعض النماذج من نثره ، يقول في إحدى حكمه : « الخوف سوط يسوق ويعوق ، يسوق إلى الطاعة ويعوق عن المعصية »[2].

لقد استعار سلوكا ماديا " سوط " ، فشخص في صورة استعارية الخوف ومثّله كأنّه سوط يسلطه الله على النفوس الجريئة الّتي لا تطيع الله في أوامره ، ولا تخشاه ، فنتيجته العذاب.

والخوف كما قيل « سوط الله يقوّم به الشاردين عن بابه »[3].

ويروى عن الإمام الحنبلي – رحمه الله تعالى– أنّه قال : « سألت ربّي أن يفتح علي بابا من الخوف ففتح ، فخفت على عقلي ، فقلت : يا ربّ أعطني على قدر ما أطيق ، فسكن ذلك عنّي »[4].

كما وظف لفظة قوية في قوله : « من لم يستعن بالله على نفسه صرعته » إذ استعمل لفظة "صرعته" وهو فعل صرع ، يعني من لم يستعن على نفسه بأوامر الله واجتناب المحارم وقع صريعا لها أي قتيلها ، لأنّه حاد عن سبيل الله.

---

[1] – إستراتيجية المعنى في قراءة القصة السودانية الحديثة في المكان ، البلال معاوية (كاتب من السودان).
– الموقع على الأنترنت : http://www.nizwa.com

[2] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 26.

[3] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 125.

[4] – المصدر نفسه ، ص 131.

ونواصل جولتنا مع شيخنا أبي مدين في عالمه الحسي الجمالي إذ يقول : «نافخ الكير إن لم يحرقك بناره أذاك بشراره » ، و « حامل العطر إن لم يحذك عطره متعك بنشره »[1].

يعني بنافخ الكير الجاهل أو جليس السوء ، فاحذر صحبته واجتنب مجالسته ، لأنّ الرسول ﷺ : « ولا تجالسوا أهل البدع فإنّ مجالستهم تميت القلب »، فإذا ظهرت معرفة الأشرار فيجب الفرار منهم ، قال تعالى : ﴿ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ ﴾ [2] ، أمّا القول الثاني فمعناه حامل العطر هو العالم بالله الداعي لأوامر الله حتّى ولو لم تتبعه ، فقد متعك بشمّ رائحتها ، فمن جالس الأخيار احتفظ من الأشرار ، يقول رسول الله ﷺ : « زاحموا العلماء ، فإنّ عندهم مفاتيح الجنان » ، فجليسهم لا يضلّ ولا يستوحش ، ولا يخيّب ظنّه.

نلاحظ أنّ الشيخ أبا مدين استعمل الرمزية الصوفية ، ففي القول الأوّل رمز إلى نافخ الكير بالجاهل ، وفي القول الثاني رمز إلى حامل العطر بالعالم ، والرمز هو "الإغراق" في أوجه البلاغة وخصوصا الاستعارة »[3] ، لأنّها تقوم على حذف المشبه أو المشبه به ، وهذا ممّا يجعل فيها بعض الغموض.

فالصورة الّتي وظفها هنا هي صورة القلب والحلم ، صورة كسرت النمط المألوف واللغة العادية ، وغاصت في الغرابة والغموض والحيرة والتناقض لأنّها عبّرت

---

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 45 – 46.

[2] – سورة الأعراف ، الآية 27.

[3] – التصوف في الإسلام ، عمر فروخ ، ص 99.

عن عالم غريب وغامض ومحيّر فبدت غاية في الألغاز والإيهام ، تشير ولا تعبّر ، تلمح ولا تصرح ، توهم ولا ترى.

لقد اختار أبو مدين التضاد أو التناقض أي يورد الكلمة ثمّ يتبعها بما يخالفها في المعنى ، فقد دأب المتصوفة على إدراج هذه المصطلحات المتضادة فيما بينها كالغيبة والحضور والفناء والبقاء ، الجمع والفرق ، القرب والبعد ، المحو والإثبات ، الستر والتجلي.

فأقوال وحكم الشيخ أبي مدين حافلة بهذا النوع من الصور البلاغية ، فيقول مثلا في إحدى حكمه : « لسان الورع يدعو إلى الآفات ، ولسان التعبد يدعو إلى الدوام ، ولسان المعرفة يدعو إلى الفناء والمحو والإثبات » ، هنا استعمل كلمتين متناقضتين ؛ الدوام والفناء ، ثمّ المحو والإثبات ، وهي مصطلحات صوفية تجري على ألسنة المتصوفة.

فالمحو والإثبات « من نفى عن أحواله الخصال الذميمة وأتى بدلا منها بالأفعال والأحوال الحميدة ، فهو صاحب محو وإثبات »[1] ، فحقيقة المحو والإثبات صادران عن القدرة الإلهية « فالمحو ما ستره الحق ونفاه ، والإثبات ما أظهره الحق وأبداه »[2]، والمحو والإثبات مقصودان على المشيئة ، قال تعالى : ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاء وَيُثْبِتُ﴾[3].

---

[1] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 73.

[2] – المصدر نفسه ، ص 73.

[3] – سورة الرعد ، الآية 39.

فالله يمحو عن قلوب العارفين والمؤمنين ذكر غير الله تعالى ، ويثبت على ألسنة المريدين ذكر الله تعالى.

ولعلّ الشيخ أبا مدين أراد بالبقاء والفناء ، والمحو والإثبات ضرورة إلجام النفس وورعها وفنائها عن الشهوات وبقائها بنور الله تعالى ، فالعبد لا حول ولا قوة له في المحو والإثبات إلاّ بقدرة الله ، من علم أو عمل ، فإرادة العبد مستنبطة من إرادة الخالق ، يقول الله تعالى : ﴿إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا﴾ [1].

يقول الشيخ أبو مدين : « الشيخ من جمعك بحضوره وحفظك في مغيبة آثار نوره » ، هنا استعمل التضاد في كلمتي " الحضور " و " الغياب ".

الغيبة هي « غيبة القلب عن علم ما يجري من أحوال الخلق لاشتغال الحس بما ورد عليه ، ثمّ يغيب إحساسه بنفسه وبغيره بوارد من تذكر ثواب أو تفكر عقاب»[2]، أمّا الحضور « فإنّه يكون غائبا عمن الخلق وحاضرا بالحق ؛ أي حاضرا بقلب بين يدي الله وذلك لاستيلاء ذكر الحق على قلبه ، فهذه أحوال نفسية تختلف فيما بينهم ».

وهذا ما أراد وصفه الشيخ أبو مدين عند حديثه عن قيمة الشيخ ، فحقيقة الشيخ المربي هو من رفعك من الولاية الصغرى ؛ أي في المقام الذي هو فيه إلى الولاية الكبرى ، ألا وهو الحضرة الإلهية ، فيغشاك النور الإلهي الذي هو فيه عنك وتأتيه بقوله له : هاأنت وربك ، فإن غابت عنك جسمانيته – الشيخ – لم تغب

[1] – سورة الإسراء ، الآية 87.

[2] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 69.

عنك روحانيته[1] ، يقول تعالى: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ * فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾[2].

ويقول أيضا : « الفتوى رؤية محاسن العبد والغيبة عن مساويهم »[3].

استعمل الشيخ التضاد بين محاسن ومساويهم في رؤية محاسن العبد والغيبة عن مساويهم ، قال ﷺ : « من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه » ، فالمؤمن الحق هو الذي لا يتكبر ولو على عاص أو فاجر ، فالله يهدي من يشاء ويضل من يشاء.

كما وظف الشيخ أبو مدين التضاد بين "الذكر والغفلة" قائلا: « جعل الله قلوب أهل الدنيا محلا للغفلة والوسواس وجعل قلوب العارفين محلاّ للذكر والاستئناس »[4].

فالذكر هو قوام المجاهدات الصوفية وهو سلوك ذو قيمة روحية يلتزمه الصوفي ليبقى على صلة دائمة بالله ، وهو « ركن قوي في طريق الحق سبحانه وتعالى ، بل هو العمدة في هذا الطريق ، ولا يصل أحد إلى الله تعالى إلاّ بدوام الذكر »[5].

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 102.
[2] – سورة القمر ، الآيتان 54 – 55.
[3] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 30.
[4] – المصدر نفسه ، ص 25.
[5] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 221.

وقيل : « من لم يذق وحشة الغفلة لم يجد طعم أنس الذكر »[1]، والذكر على ضربين : ذكر اللسان وذكر القلب « فإن كان العبد ذاكرا بلسانه وقلبه فهو الكامل في وصفه في حال سلوكه »[2] ، يقول تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾[3].

ويعني بذلك أنّه لا يستوي حبّان في قلب واحد ، فالذي امتلأ قلبه بحب الدنيا ، غفل عن حب الله ، وهو مصر على ذنبه وأخطائه ، فيكون عرضة للوساوس غارقا في نومه بعيدا عن الله فعقابه العذاب الشديد يوم مماته ، أمّا قلوب العارفين فهي مستأنسة بقرب الرحمان ، فهم هؤلاء الأبرار المصطفون الأخيار الذي لا يشغلهم حبّ الدنيا عن الصلاة والأذكار.

كما استعمل التضاد في قوله « لا ينفع مع الكبر عمل ، ولا يضرّ مع التواضع بطالة » بين المفردتين : - الكبر والتواضع - ، فالكبر هو : « أنّ ينسى نعمة من فوقه ، واستعلاءه عليه ، وشدّة فقره إليه...، وإذا نظر إلى النعمة وشغلته الملاهي عنها باتباع الهوى عن أداء شكرها، نسي الذكر.. وحلّ بالكبر، فهذا هو الكبر الذي يبطل الحق»[4]، وأمّا التواضع فهو « قبول الحق ممّن كان »[5].

---

[1] - الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 225.

[2] - أبو مدين شعيب ، عبد الحليم محمود ، ص 78.

[3] - سورة الأحزاب ، الآية 41.

[4] - المسائل في أعمال القلوب والجوارح ، المحاسبي ، ص 20.

[5] - الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 150.

فإذا كان العمل للاستكبار فنتيجته الخزي في الدنيا والآخرة لأنّ الله تعالى لا يحب المتكبرين ، فالكبرياء لله تعالى ، ولا تضرّ البطالة مع التواضع ، فبالعمل الصالح إلى الملأ الأعلى يرفع ، وبالخضوع يرتفع إلى الأعلى ، قال ابن عطاء الله السكندري في بعض حكمه : « ربّ معصية أورثت ذلا وافتقارا ، خير من طاعة أورثت عزّ واستكبارا »[1].

كما وظّف التضاد في قوله : « دليل تخليطك صحبتك المخلطين ، دليل وحشتك أنسك بالمستوحشين » ، المفردتين هما " وحشتك " و " أنسك " ، فالأنس «أن تأنس النفس والجوارح بالعقل ، ويأنس العقل والنفس بعلم الشرع ويأنس العقل والنفس والجوارح بالعمل لله خالصا ، فيأنس العبد بالله أي يسكن إليه» [2].

ومعنى هذا أنّ الوحش من الله تعالى دليل على الإنس بغيره ، فهو الغافل الجاهل المرتد الذي ذكر الدنيا فقط ونسي الآخرة ، بل نسي ربّه ، يقول الله تعالى : ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [3].

كما وظف التضاد في قوله : « من عرف الله استعاد منه في اليقظة والمنام»[4]، وهما مرادفتين للمصطلحين الصوفيين – الصحو والسكر – ، والّتي تعتبر من أكثر المصطلحات الصوفية وأوفرها انتشارا في الخطاب الشعري الصوفي والّتي تتحدث عن

---

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 67.

[2] – اللمع ، الطوسي ، ص 69.

[3] – سورة الفرقان ، الآية 44.

[4] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 16.

الخمر ونشوتها، أي هذا الشراب الروحي الذي يغترف منه كل من المريد والعارف، والشيخ من أهل التصوف بغية الوصول إلى المحبة الإلهية.

ويقصد باليقظة والمنام ، ضرورة اتصال العبد بربّه ، ليس وهو صاح فقط بل حتّى في المنام ، فإذا كان العبد يخشى ربّه في اليقظة كذلك لا يأمن ذلك في منامه لقوله تعالى : ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ﴾ [1] .

كما وظّف التضاد في قوله : « أبناء الدنيا تخدمهم العبيد والإماء ، وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار والكرماء »[2] ، في المفردات التالية " العبيد والإماء " — "الأحرار الكرماء" هنا يتحدث عن الحرية والعبودية وهما مصطلحين صوفيين رمز بهم إلى الدنيا والآخرة.

فالحرية « هو أن لا يكون العبد بقلبه تحت رقّ شيء من المخلوقات لا من الأعراض الدنيا ، ولا من أعراض الآخرة ، فيكون فرد الفرد لا يسرقه عاجل دنيا ، ولا حاصل هوى ، ولا آجل هنى ، ولا سؤال ولا قصد ، ولا هدف ولا حظ »[3].

أمّا العبودية « التبري من الحول والقوة ، والإقرار بما يعطيك ويواليك من الطول والمنّة » ، فالعبودية هي «أن تكون عبده في كل حال ، كما أنّه ربّك في كل حال »[4].

---

[1] – سورة الأعراف ، الآية 97.

[2] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 50.

[3] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 220.

[4] – المصدر نفسه ، ص 198.

ومعنى هذا أنّ أبناء الدنيا هم الذين يقصدون الدنيا ويلهتون وراءها ناسين الآخرة وعذاب الله ، قال تعالى : ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ ﴾ [1] ، أمّا أبناء الآخرة فهم العباد والزهاد والصوام الذين يعبدون الله حق عبادة مقتنعين بما أعطاهم ، فمن كان يريد وجه الله الكريم ينال منال المقربين ، لقوله تعالى : ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ ﴾ [2].

كما وظف الجناس التام في قوله : « الغيرة أن لا تَعرف ولا تُعرف »[3] في المفردتين " لا تَعرف ولا تُعرف " ، فالغيرة مصطلح صوفي وهي « كراهية مشاركة الآخرين وإذا وصف الحق سبحانه بالغيرة فمعناه أنّه لا يرضى بمشاركة غيره معه فيما هو حق له من طاعة عبده » ، قال الرسول ﷺ : « إنّ الله يغار ، وإنّ المؤمن يغار ، وغيرة الله تعالى أن يأتي العبد المؤمن ما حرّم الله تعالى عليه »[4].

كما وظف الشيخ أبو مدين جناسا ناقصا في قوله : « الفقر أمان على التوحيد ودلالة على التفريد ، الفقر أن لا تشهد عين سواه »[5] ، في المفردتين "التوحيد والتفريد".

---

[1] – سورة البقرة ، الآية 175.

[2] – سورة الشورى ، الآية 20.

[3] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 52.

[4] – رواه أبو هريرة ، أخرجه البخاري.

[5] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 69.

والفقر يقتضي مقام الصبر ، ويعني به الفقر إلى الله لأنّه هو عين التوحيد ، فهو الواهب وله ما في السماوات والأرض ، وتحقيق الفقر إلى الله هو استغناؤك عمّا سواه.

لقد اعتنى الشيخ أبو مدين عناية فائقة بالرمزية الصوفية وما تضمنته من ميزات وصور بلاغية حساسة أضفت على النص جمالا صوفيا رائعا ، تجلّى فيها النور الرباني ، فلا يمكن التعبير عن عالم غير عادي أو ما وراء الطبيعة بلغة عادية ، لذلك عمل الصوفي على خرق البناء المعتاد وذلك بفضل تجربة الكشف الذي يمرّ بها كل أديب صوفي والّتي تفترض لغة كشفية تضرب عرض الحائط لغة الفلاسفة والمناطقة الّتي هي عبارة نتاج العقل فقط ، أمّا اللغة الصوفية فهي لغة ما وراء الطبيعة، أي الكشف الإلهي أو الحضرة الإلهية أو الذات الإلهية ، أي الوقوف بين الله عز وجل في كل الأحوال وكل المقامات ، بل المهمة تتعدّى التأثير الجمالي إلى محاولة التأثير في البنية العقلية والفكرية ، فالصوفي يعدّ نفسه صاحب رسالة تقتضي دمج وعي القارئ بوعي النص وضرورة الوصول إلى الحضرة الإلهية.

3) الأسلوب :

إنّ أوّل مصدر أرشد المسلمين إلى الصراط المستقيم هو بلا شكّ القرآن الكريم ، والمصدر الثاني هو أقوال النبيّ ﷺ وأفعاله الظاهرية وأحواله الباطنية ، فيتخذون منها مثلهم الأعلى الّتي تضيء لهم سبل الحياة.

ومن هنا يتضح أنّ السنة المحمدية عند المسلمين بصفة عامة والصوفيين بصفة خاصة هو تطبيق أصول الفضائل الأخلاقية.

فالكتاب والسنة وحياة الرسول ﷺ تطبيق نموذجي للتجربة الدينية بجميع أبعادها ولأهمّ الأسس الّتي يقوم عليها التصوف.

وأساليب التصوف الإسلامي يقوم على تربية المريدين على التوبة والمجاهدة والزهد والمحبة والخشية والورع ، وكل ما له علاقة بالمقامات سلوكا وأساليب تربوية[1].

إنّ هذه الأساليب تؤكد لنا أنّ التصوف هو جزء جوهري من الدين الإسلامي ، فمن القرآن والسنة استمد الصوفية أساليبهم في الأخلاق والسلوك.

وبنظرة تحليلية إلى التصوف تبين لنا أنّ الصوفية على اختلافهم يتصورون أساليب للسلوك إلى الله ، تبدأ بمجاهدة النفس أخلاقيا ، وتندرج الأساليب في مراحل متعدّدة تعرف بالمقامات والأحوال لتصل إلى معرفة الله أو الحضرة الإلهية[2].

---

[1] – آفاق الأساليب اللغوية ، أحمد عبد الرحيم السايح.
– الموقع على الأنترنت http://kitabat,com

[2] – الموقع السابق.

وبما أنّ هذه الأساليب وهذه السلوكات لا تخضع لحكم العقل ومقولاته ، فإنّه يحق للصوفية أن يعترضوا على كل من يحاول أن يزن تجاربهم وتعبيراتهم عنها بميزان العقل لأنّ العقل وقوانينه مشتركة بين جميع الناس ، أمّا التجارب الصوفية فلا تخص غيرهم ، فهي حال ذاتية.

ولا يخفى أنّ الأساليب الصوفية ترتكز على بناء الذات الإنسانية من داخلها أنّ أنماط السلوك إنّما هي تعبير عن محتوى الإنسان الداخلي ، فالأساليب الصوفية لم تكتف برسم المنهج السلوكي وبيان الدافع الذي ينبغي أن يؤدي إليه ، ولكنّها عملت على هيمنة النفوس وإعدادها إعدادا عمليا لتتحول المبادئ إلى النظرية إلى واقع عملي ، وهذا ما أراد إثباته الشيخ أبو مدين في أفكاره الصوفية.

والأسلوب في تعريفه « هو فنّ من الكلام ، يكون قصصا أو حوارا ، أو تشبيها أو مجازا، أو كناية ، تقريرا أو حكما وأمثالا »[1].

وهو « الصورة اللفظية الّتي يعبر بها عن المعاني أو نظم الكلام وتأليفه لأداء الأفكار وعرض الخيال ، أو هو العبارات اللفظية المتسقة لأداء المعاني »[2].

ومن هنا فالأسلوب هو الطريقة الّتي ينتهجها الأديب أو الكاتب أو الشاعر في مادته الأدبية ، وقد تكون هذه الطريقة كتابية أو إنشائية ، أو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني للتوضيح والتأثير ، وهو لغة يعني الطريقة ،

[1] – الأسلوب ، أحمد الشايب ، ص 41.

[2] – المرجع نفسه ، ص 46.

طريقة الكتابة ، ومذهبا في التعبير عن الأفكار والمشاعر ، ووجها من أوجه إفصاح الكاتب عن شخصيته المتميزة عمّا سواها »[1].

أمّا الدراسات الغربية الحديثة فلها آراء مختلفة في مفهوم الأسلوب ومنها الدراسات الأسلوبية النفسية الاجتماعية ومن روادها الباحث الفرنسي "موريير" الذي حاول استكشاف ما أسماه : رؤية المؤلف الخاصة للعالم من خلال أسلوبه ، واكتشاف هذه الرؤية يقوم على تيارات كبرى تحرك الأنا العميقة وهي : القوة ، الإيقاع ، الرغبة ، الحكم ، التلاحم ، ولكل نمط من هذه الأنماط ونظام خاص بها ينصهر في الذات الداخلية ، « فالقوة قد تكون قاعدتها الشدّة أو الضعف والإيقاع قد يكون متسقا أو ناشزا ، والرغبة قد تكون صريحة أو مكبوتة ، والالتحام قد يكون واثقا ، أو مترددا ، والحكم قد يكون واثقا أو متشائما »[2].

ومن أهمّ الآراء الّتي تدعم رأي "موريير" قول "باكس جاكوب" : « إنّ جوهر الإنسان كامن في لغته وحساسيته ، و"بول كلوديل" في مقولته : الأسلوب هو نغم شخصية الإنسان ، و"بوست" في مقولته : إنّ الأسلوب بصمات تحملها صياغة الخطاب، فتكون كالشهادة الّتي لا تمحي »[3].

فالأسلوب – بالنسبة لهؤلاء الباحثين الغربيين – الطريقة الّتي يشكل بها المؤلف ذاته في عمله الأدبي تشكيلا فكريا وشخصيته وهو فتاوى الصفة.

---

[1] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، ص 117.

[2] – المرجع نفسه ، ص 118.

[3] – المرجع نفسه ، ص 120.

أمّا إذا عدنا إلى الدراسات العربية الحديثة ، فيقتصر شرحنا على مفهوم أحمد الشايب في مؤلفه الأسلوب ليعود مرّة أخرى للتأكيد على أهمية هذا الشرح ، إذ يشير إلى أنّ : « الأديب حينما يعبر عن شخصيته تعبيرا صادقا ، يصف تجاربها ونزعاتها ومزاجها وطريقة اتصالها بالحياة ، ينتهي به الأمر إلى أسلوب أدبي ممتاز في طريقة التفكير والتصوير والتعبير ، هو أسلوبه المشتق من نفسه هو : من عقله وعواطفه وخياله ولغته ، تلك العناصر الّتي لا تتوافر لغيره من الأدباء »[1].

فللأسلوب أوصاف كثيرة ، نلاحظها في الأعمال الأدبية نثرية كانت أم شعرية ، وهذه الآليات هي الّتي تبرز مثالية الأسلوب وصدقه وإخلاصه في تصوير فكرة أو رأي ترد على ذهن الكاتب أو تتعمّق في نفسيته ، ومن بين هذه الأوصاف الّتي يتصف بها الأسلوب ، الأسلوب الموجز أو المساوي أو السهل أو الغامض الّتي يتصف بها التصويري[2] ، إلى غير ذلك من السمات البارزة في الأسلوب شكلا ومضمونا ، وهذه الصفات أو الأوصـــاف يجب أن تتوفر على ثلاث مقـــاييس : « الوضوح القصد الإفهام ، القوة لقصد التأثير ، الجمال للإمتاع »[3].

والصوفيون يؤمنون بأنّ الوجود الإنساني هو سرّ هذا الوجود الكوني ، وأنّ حياة الإنسان متطورة بذاتها نحو الكمال ، وهي مؤثرة في كمال الوجود الشامل ، يقول محي الدين عربي : « إنّ الله تعالى لّما أوجد العالم كان شبحا لا روح فيه

[1] - الأسلوب ، أحمد الشايب ، ص 127.
[2] - المرجع نفسه ، ص 185.
[3] - المرجع نفسه ، ص 185.

فاقتضى الأمر جلاء مرآة العالم ، فكان آدم عين جلاء تلك المرآة ، وروح تلك المرآة ، وهو الحافظ للعالم والصدقي على نظامه»[1].

وإذا كانت القواعد الأسلوبية لا تستطيع أن تحصي جميع أساليب النص – فمن واجبنا – أن نهتمّ بالعناصر الأسلوبية الموجودة فيه ، والّتي وضعها المؤلف لأغراض شتّى، اكتفينا برصد ما هيمن من أساليب في النص الصوفي لشيخنا أبي مدين شعيب ومن بين هذه الأساليب : « التقابل ، التمثيل ، التجريد ، التناص ، والأسلوب القصصي ».

إنّ التجربة الصوفية الّتي مرّ بها أبو مدين شعيب والّتي ترجمها في مصنفاته النثرية تقوم أساسا على التقابل والتخالف أو التناقض.

والتقابل هو : « التعارض الدلالي بعضه عن بعض ، وقد يسمّى تخالفا أيضا»[2].

فأسلوب التقابل في مصنفات الشيخ أبي مدين تشكيل بنيوي عميق يعبر عن طبيعة نفسية الصوفي التواقة إلى الاتصال بالذات الإلهية أو الوصول إلى الكشف الإلهي.

يقول في بعض حكمه : « الشيخ من جمعك بحضوره وحفظك في مغيبه آثار نوره »[3].

---

[1] – الأدب في التراث الصوفي ، عبد المنعم الخفاجي ، ص 122.

[2] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، ص 139.

[3] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 101.

فالحضور والغياب يلازمان المريد ، فإذا غاب الشيخ ترك المريد في الحضرة الإلهية، أي بين الله « فهذا هو الشيخ المرشد الذي يسرع بالأسرار إلى حضرة القهار، بالأبوة السرية وبالأمومة الروحانية »[1].

فإذا قيل مثلا : « فلان حاضر ، فمعناه : أنّه حاضر بقلبه لربه ، وغير غافل عنه ولا ساه ، ثمّ يكون مكاشفا في حضروه حسب رتبته بمعان يخصه بها الحق سبحانه وتعالى»[2].

وقوله كذلك : « انكسار العاصي خير من صولة المطيع »[3].

هنا المعصية والطاعة لفظتان متقابلتان متناقضتان ، ويعني بذلك أنّ العاصي المنكسر هو الخارج من دينه الداخل في فضل ربه ، والانكسار أساس التوبة ، أمّا المطيع إذا تكبر بعبادته خرج من فضل الله ودخل في الوزر ، فالكبر صفة رديئة حذر منها الله تعالى.

وقوله كذلك : « بفساد العامة تظهر ولاة الجور ، وبفساد الخاصة يظهر الدجاجلة ، الفتانون في الدين »[4].

وهناك تقابل بين فكرتي الحكمة ، أي فساد العامة وفساد الخاصة وما ينجر عنهما. فالفساد : هو خلاف لأوامر الله ، ولاة الجور : ولاة الشيطان ، والعامة :

---

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 102.

[2] – الرسالة القشيرية ، القشيري ، ص 70.

[3] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 54.

[4] – المصدر نفسه ، ص 55.

هي الجوارح أي أعضاء الإنسان ، فإذا فسد عضو من هذه الأعضاء فسد الجسد و لم يعد صالحا ، وهذا ينطبق على فساد الخلق.

أمّا المعنى الثاني من الحكمة ففساد الخاصة : هو فساد القلب وهنا يتجلى حديث رسول الله ﷺ : « في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد سائر الجسد ، ألا وهي القلب ».

الدجاجلة : هي الهويات النفسانية الباطلة من معاصي وشهوات ، فإذا ظهروا بالجور (أي أعضاء الإنسان) فسدت العامة من أعضاء الإنسان ، وفسدت الخاصة وهو نور القلب.

وقال كذلك : « إن أقامك ثبتك ، وإن قمت بنفسك سقطت ، اللهمّ فهمنا عنك ، فإنّا لا نفهم عنك إلاّ بك »[1].

فالتقابل هنا بين العبارتين والمتمثل أساسا في القيام أي الاستعانة بالله على أمره، فمن أقامه بذلك ثبت قدمه ، لقوله تعالى : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[2]، فالإستعانة واجبة أمر الله بها ، ومن لم يستعن بالله فقد سقط وانحدر بل ارتد ، والمرتد لم تحصل له الشهادة ، ثمّ اختتم حكمته بالدعاء والتضرع لله تعالى.

كما وظّف أسلوب التقابل في قوله : « اطرح الدنيا على من أقبل عليها ، واقبل على مولاك ، ومن يتفرغ من اشتغال الدنيا أقامه الله في خدمته »[3].

---

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 26.

[2] – سورة الفاتحة ، الآية 5.

[3] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 37.

فالتقابل موجود بين العبارتين المتمثلتين في الإقبال على الدنيا وترك الدنيا ، فمن آثر الدنيا على مولاه فاتته الآخرة ، فوقع عبدا لها ، يقول عزّ من قائل : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[1] ، ومن آثر حبّ آخرته على دنياه نال مرضاة الله ، لأنّ حبّ الدنيا يصدّ عن الآخرة ، فمن أقبل على الله انقادت له الدنيا والآخرة ، فطريق أهل الدنيا إيثارها على الآخرة ، وطريق الزهاد إيثار الآخرة على الدنيا، والذين يؤثرون الآخرة على الدنيا ؛ أي محبة الله ، فقد أقامهم الحق لخدمته واصطفاهم لحضرة قدسية.

ونخلص إلى أنّ أسلوب التقابل والتخالف (أي المقابلة) يعدّ من أبرز العناصر الّتي تزخر بها النصوص الصوفية ، وهذا ما ظهر جليا في حكم الشيخ أبي مدين بن شعيب، ولو لم نطل في الشرح لتفادي الإطناب الممل ، والاختصار فقط على بعض شرح بعض الحكم ، وهذا راجع إلى "طبيعة التجربة الصوفية"[2] ، المبنية على التعدّد والتقابل بين المفردات أو حتّى بين العبارات ، والعمل من أجل فناء ذات المتصوف في الذات الإلهية والانصهار فيها.

- **أسلوب التمثيل** :

التمثيل في البلاغة : هو مجاز مركب ؛ أي تشبيه صورة مركبة بصورة مثلها. والتمثيل على طوله واسترساله قد يحتوي على تشبيهات بسيطة واستعارات محدودة،

---

[1] - سورة المنافقون ، الآية 9.

[2] - شعر أبي مدين التلمساني ، أحمد حبار ، ص 149.

والتمثيل يعمل على التشخيص والتجسيد والتصوير للإدراكات العقلية وإخراجها في صور حسية ملموسة[1].

وبناء على ذلك ، فالتمثيل يعدّ من أهمّ الأساليب نظرا لكون التجربة الصوفية هي تجربة ذوقية فردية أي تشخص شخصية أو نفسية الصوفي وانفعالاته وحالته ، وليس لها في اللغة العادية معجم يقوى على ترجمتها وإخراجها من الباطن إلى الظاهر لذا نرى المتصوفة يلجؤون إلى أسلوب التمثيل لإخراج أذواقهم وإدراكاتهم الحسية ونسجها في صور محسوسة وملموسة.

من أساليب التمثيل في نثر الشيخ أبي مدين قوله في إحدى حكمه : « الوجد: خطرة تلهب ثمّ نصرة لا تسلب ، الأجسام أقلام ، والأرواح ألواح ، والنفوس كؤوس»[2].

هنا نلاحظ تراكم الصور البيانية من جناس واستعارة إلى تشبيه.

الأجسام أقلام أي الصور الجسدية كالأقلام ، أي تنسخ ما أرادته القدرة عن تأويل الإرادة مع طلب العبد وحسن ظنه ، والأرواح ألواح ، يكتب فيها عمل الإنسان ، لأنّ الروح مثل الصحيفة والجسم مثل القلم ، والنفوس كؤوس ؛ أي يمتد منها القلم ويكتب على الصحيفة سطور بيته[3].

ومعنى هذا أنّ النفس مثل مداد المحبرة ، والجسم كالقلم والروح كالصحيفة ليبين للعبد ماله وما عليه ، فيجب على القارئ أن يزن ما يكتب بقلم جسمه ،

---

[1] – شعر أبي مدين التلمساني ، أحمد حبار ، ص 150.

[2] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 130.

[3] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 89.

ويرى ما يمد من محبرة نفسه ، ويبصر ماذا يجري قلمه في صحيفة روحه ، فإن كان خيرا شكر الله تعالى ، وإن شرا تاب إلى الله تعالى.

فهذه الصور البيانية فيما بينها مرهونة بمدى ذكاء الصوفي وقدرته على إدراك العلاقات بين الموضوعات المتباعدة ، بين موضوع صوفي ذوقي ، وموضوع حسي ملموس ثمّ أوجه التلاقي النفوس كؤوس ، وبذلك يغدو المثل أو التمثيل شبيها من الدلالات الحسية ، يخرج من التجريد إلى المحسوس.

ومن صور التمثيل قوله : « الوحدة بحضرة تلهب ثمّ نظرة تسلب »[1]. معنى هذا وحدة الحق سبحانه وتعالى أي الوحدة الخلقية هي العزلة في الخلوة ، لأنّ الوحدة الإلهية تلهب شهوات النفس وتحرقها ، ثمّ نظرة تسلب ؛ أي تسلب العبد عن نفسه ، وتحضره بربه.

ومما يلاحظ على حكم الشيخ أبي مدين ، أنّ التمثيل ليس مجرد حلية أو محسن بلاغي ، كالتشبيه والاستعارة والكناية ، ولكن التمثيل أسلوب مسترسل يحتوي المحسنات ، إذ له قدرة على حمل طلقة التجربة الصوفية والّتي تتضمن رؤية الصوفي الخاصة للعالم.

فهذا يدل على ما في هذا الأسلوب من إثارة وحسن ومدى تألقه في الدراسات الأدبية.

---

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 90 – 91.

- **أسلوب التجريد :**

فالتجريد بالمفهوم اللغوي " التعرية " ، أمّا بالمفهوم الاصطلاحي هو أن : «تطلق الخطاب على غيرك ، ولا يكون هو المراد ، إنّما المراد نفسك »[1].

وللتجريد من حيث وظيفته البلاغة فائدتين : الفائدة الأولى وهي التوسع في اللغة، أمّا الثانية ؛ وهي أنّ : « المخاطب يتمكن بالتجريد من إجراء الأوصاف المقصودة على نفسه »[2] حين يخاطب غيره.

وإذا كان أسلوب التجريد ، من خصائص الأسلوب العامة في الأدب العربي ، فإنّه من أهمّ الأساليب الّتي لجأ إليها المتصوفة بما تحتويه من تلميح ورمز في تصريف آليات الخطاب الصوفي.

ومن نماذج أبي مدين في التجريد قوله في التوحيد ، الذي يعتبر مذهبه ومنهجه في الحياة « بقاء الأبد في فنائك عنك »[3].

هنا يتحدث عن البقاء والفناء ؛ أي أن يفني الإنسان عن الخلق ويبقى بالحق.

« الوصول استغراق أوصافك وتلاشي نعوتك »[4].

إذا ظهر عليك الحق بذاته وصفاته تلاشى العبد واضمحلت مكوناته.

فالشيخ أبو مدين – من خلال حكمه – يحثّ على التوحيد وضرورة السير على منواله ؛ أي الإقرار بالوحدانية ويبيّن لنا أنّ العبد يصبح وهما أمام سلطة الله

---

[1] – البيان والمزيد ، عبد القادر باعشن ، ص 156- 157.

[2] – المصدر نفسه ، ص 157.

[3] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 131.

[4] – المرجع نفسه ، ص 131.

وقدرته ، ومن ثمّ اتضحت فائدة أخرى للتجريد وهي: «المبالغة في التيقن من دلالة النص الكلية»[1]، والّتي هي دعوى إلى التجريد ، وهذا ما جعله ينـــزع من نفسه شخصا آخر يخاطبه ويأمره في يقين مستعملا في ذلك ضمائر المخاطب وأفعال الأمر.

ونخلص إلى أنّ أسلوب التجريد يعدّ من أهمّ مقتضيات الخطاب الصوفي الّتي تعمل على إثبات الصفات والمبالغة في تجسيدها من أجل إيصال الصوفي فكرته إلى المريد أو القارئ.

- **أسلوب التناص** :

التناص هو الاقتباس : وهذا إذا كان الاقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، و"التضمين"[2]، إذا كان النص المقتبس من غيرهما ، ومصطلح "الأخذ"[3] إذا أخذ الأديب معنى من المعاني ، أو صورة من الصور الأدبية عن غيره فتجاوزها إلى صورة أحسن منها.

لقد تأثر أبو مدين كغيره من الأدباء الصوفيين بأسلوب القرآن الكريم وبمعانيه وألفاظه ، وهو ما يسمى عند علماء البلاغة بالاقتباس والذي عرّفه الرازي بأنّه : «هو أن تدرج كلمة من القرآن الكريم أو آية منه في الكلام تزينا لنظامه وتفخيما لشأنه »[4] ، وقد وظف أبو مدين هذا الاقتباس في حكمه.

---

[1] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، ص 160.

[2] – المرجع نفسه، ص 161.

[3] – المرجع نفسه ، ص 161.

[4] – أبو مدين شعيب حياته وأدبه ، حسين فارسي ، ص 167.

وإذا عدنا وفي ضوء ما سبق إلى نثـــر أبـــي مدين لوجدناه كثير الاقتباس من القرآن الكريم والأحاديث النبوية ، بالإضافة إلى مصطلحات الصوفيين.

ومن أهمّ اقتباسات أبي مدين من القرآن الكريم قوله : « من لم يكن بالأحد لم يكن بأحد » ، وقوله : « من عرف أحدا لم يعرف الأحد » ، وقوله : « ما بان عنه أحد ، ولا اتصل به أحد ، ما بان عنه من حيث العلم ، والقدرة ، ولا اتصل به من حيث الذات والصفات »[1].

معنى الأحد هو الله المنفرد بالوحدانية مقتبس من قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ * اللَّهُ الصَّمَدُ ﴾[2].

وقول أبـــي مدين : « توكل على الله حتّى يكون الغـــالب عليك ذكره على ذكرك، فإنّ الخلق لم يغنـــوا عنك من الله شيئا »[3]، مقتبسة من القرآن الكريـــم : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾[4]، وقوله تعالى : ﴿ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾[5].

---

[1] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 131.

[2] – سورة الإخلاص ، الآيتان 1 – 2.

[3] – العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، محمد الطاهر علاوي ، ج1 ، ص 126.

[4] – سورة الطلاق ، الآية 3.

[5] – سورة آل عمران ، الآية 122.

يقول أبو مدين : « إن أظهر الحق لم يبق معه غيره ». استعمل الشيخ أبو مدين كلمة " الحق " في حكمته، وهي كلمة مذكورة في القرآن الكريم يقول تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [1].

ويقول أبو مدين : « من اشتغل بالدنيا ابتلي بالذل فيها ». في هذه الحكمة أورد كلمة " الدنيا " ، والكلمة أوردها القرآن الكريم في أكثر من آية ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ﴾ [2].

لقد استعمل الشيخ أبو مدين مفردة " العبيد " في حكمته : « الفتوة أن لا تشتغل بالخلق عن الحق ، الفتوة رؤية محاسن العبيد ، والغيبة عن مساوئهم ». وهي موجودة في قوله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [3].

---

[1] – سورة الإسراء ، الآية 81.

[2] – سورة الشورى ، الآية 20.

[3] – سورة فصلت ، الآية 46.

ويقول في حكمته : « الفقر فقر ما دمت تستره ، فإذا أظهرته ذهب نوره »، فقد وظّف كلمة " نور " وهي مأخوذة من قوله تعالى : ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ﴾ [1].

كما وظّف كلمة "نفسه " في الحكمة التالية : « من لم يستعن بالله على نفسه ضرعته » وهي مأخوذة من قوله عز وجل : ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً * فَادْخُلِي فِي عِبَادِي * وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [2].

وذكر أبو مدين لفظة " الناس " في حكمته : « من عرف نفسه لم يغتر بثناء الناس عليه » ، وهي مذكورة في قوله تعالى : ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [3].

كما استعمل كلمتين في آن واحد وهي الدنيا والآخرة في قوله : « أبناء الدنيا تخدمهم العبيد والإماء ، وأبناء الآخرة تخدمهم الأحرار الكرماء » ، وهي مأخوذة من قوله تعالى : ﴿ مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ ﴾ [4].

---

[1] – سورة البقرة ، الآية 17.

[2] – سورة الفجر ، الآيات 27 – 30.

[3] – سورة لقمان ، الآية 18.

[4] – سورة الشورى ، الآية 20.

- **الأسلوب القصصي :**

تتميز القصة بأنّها : « شكل سردي منثور ، ذات حدث معين ، وعقدة وانفراج، وشخوص وحوار ، ويجري حكي القصة في مكان وزمان معيّنين »[1].

إنّ الشيخ أبي مدين صاحب تجربة صوفية متكاملة بدأت تجربته مريدا ، ثمّ شيخا وذلك بفضل تدرجه في المقامات والّتي هي أساس التصوف ، من مشاهدات وعبادات وممارسات أخلاقية ، ثمّ وصل إلى المحبة الإلهية إلى أعلى مقاماتها ؛ أي البقاء والفناء ، الفناء في الذات الإلهية ، فقام بالإرشاد والدعوة في سبيل الحق وإلى التوحيد وهي "التجربة القصة"[2] الّتي صوّرها في قصائده أوفي مأثوراته النثرية ، أو حكمه ، فنستشف منها حكاية متصوف شقى وعنى من أجل الوصول إلى سدرة المنتهى ، وإذا توقفنا عند كرامته وما تضمنته من غرائب وعجائب ولطائف ودهشة وغموض لاعتبرناها فعلا المرآة الحقيقية الّتي تعكس التجربة الصوفية المكتملة الجوانب ، وإذا عدنا إلى القرآن الكريم فوجدناه حافلا بقصص الأنبياء والرسل ومعجزاتهم.

يقول الله تعالى : ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[3].

إنّ الله تعالى قصّ على المصطفى ﷺ أخبار الماضين من الأنبياء والأمم الخالية لخمسة أمور أو حكم :

---

[1] - شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، ص 166.

[2] - المرجع نفسه ، ص 166.

[3] - سورة هود ، الآية 120.

- لإظهار نبوته ﷺ والدلالة على رسالته.

- لتكون له أسوة وقدوة بمكارم أخلاق الرسل والأنبياء المتقدمين والأولياء الصالحين.

- تثبيتا له وإعلاما بشرفه وشرف أمّته.

- تأديبا وتهذيبا لأمّته إذا ذكر الأنبياء وثوابهم ، والأعداء وعقابهم.

- إحياء لذكرهم وآثارهم حتّى تبقى إلى يوم الساعة[1].

فإذا كانت حياة الرسل ومعجزاتهم عبارة عن قصة كما ذكرها القرآن الكريم، فلا غرو إن كانت حياة الشيخ أبي مدين وتجربته الصوفية من أجل الدعوة والإرشاد قصة تسير على نهج الأنبياء والرسل لأنّ الغاية واحدة وهي الهداية والإيمان بوحدانية الله ، فكانت الكرامة الّتي خص الله بها الشيخ دون غيره إثبات علمي صارخ على تبوّئ الشيخ رتبة القطب أو الولاية.

فكرامة الشيخ الصالح سيدي أبي مدين وما حكي عنها ، وما قيل عنها ، وما قيل فيها ، كلّها تمثّل قصّة حقيقية لمتصوف أهداه الله بأنوار الكشوفات لينير للناس الطريق وليدعوهم إلى الطريق المستقيم وإلى التوحيد.

وإذا كنّا تعرّفنا على قصة التجربة الصوفية فيجب الوقوف على العناصر الأساسية للقصة التي شكلت أسلوب القصة وهي تتمثل في : البطل – الحوار – الحدث.

[1] – قصص الأنبياء ، النيسابوري ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، 1414هـ/1994م ، ص 2- 3.

فالبطل : في النص الأدبي الصوفي هو بدون شك الصوفي أو "الذات الصوفية المغامرة"[1]، الّتي تتحدّى العوائق والحواجز ، ولعلّ قصته الشهيرة مع الرهبان لأبلغ دليل على ذلك.

وبذلك تكتمل مغامرة البطل ، وتنتهي نهاية مدهشة تتسم بخرق العادة " حدوث الكرامة " وكلّ هذا يعود إلى الواحد القهار الذي ظاهره حق خلق ، وباطنه حق ؛ أي لولا توفيق الله ومعونته له لما حدثت الكرامة ولما أسلم هؤلاء الرهبان.

الحوار : هو حديث يدور بين اثنين على الأقل « والحوار من خواص الأعمال الأدبية المسرحية والسردية »[2] ، وظيفته تتمثل في إبراز المواقف والكشف عن خبايا النفس.

وممّا يلاحظ أنّ الخطاب الصوفي يعتمد على أسلوب الحوار ، نظرا لطابعه القصصي ، لأنّ الغاية هي الإرشاد والدعوة ، فلا بدّ من المجادلة ولا يتمّ ذلك إلاّ بانصهار الذات الصوفية في الذات الإلهية ، والعلاقة هي علاقة حبّ وعبودية ، وهي عالم "الابتلاء والاختبار "[3].

ونذكر في هذا المجال قصته مع الغزالة والدراهم الّتي كانت بجيبه ، وقصته مع موسى الطيار ، وقصصه مع تلاميذه وشيوخه ، وقد أورد "الشيخ النبهاني" هذه الكرامات في كتابه "جامع كرامات الأولياء".

---

[1] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، ص 167.

[2] – المرجع نفسه ، ص 169.

[3] – المرجع نفسه ، ص 170.

وكذلك نلاحظ هذا النوع من الحوار في أقواله المأثورة الّتي تتحدث عن التوحيد والسرّ والحقيقة والعلم ، فيطرح عليه السؤال ثمّ يجيب ، ثمّ يعيد طرح السؤال ، إذ يستعمل الأفعال : " قلت " و" قالوا " ، وذلك من أجل إظهار المواقف المتعارضة.

وإذا كان الحوار في الخطاب الصوفي ليس من مقتضياته التعبيرية ،فقد يلجأ إليه الصوفي من حين إلى آخر حسب المقام ، وحسب ما تقتضيه الضرورة التعبيرية ، وما تستدعيه " النـــزعة القصصية لتطوير الحدث نحو التعقيد والانفراج »[1].

الحدث : الحدث في القصة هو لبّ القصة ، تدور حولها العناصر القصصية من : «شخصيات وحوار وزمان ومكان وعقدة وانفراج »[2] وغيرها من العناصر الّتي تؤلف القصة.

والخطاب الصوفي الذي تناوله أبو مدين يعبر أصدق تعبير عن معاناة الذات الصوفية وانفصالها عن عالمها واغترابها في عالم آخر ، وحنينها إلى موطنها ، ومن المجاهدات النفسية والعزوف عن الدنيا للانصهار في الحضرة الإلهية ؛ أي البقاء والفناء ثمّ يأتي الانفراج ، وتختتم القصة الشيقة والمثيرة بعودة الصوفي متوجا بالولاية ومكلفا بنشر تعاليم الدين الإسلامي ، ومزودا بالأفعال الخارقة للعادة ؛ أي الكرامات الّتي خصه بها الله دون غيره ليكشف له أسرار الكون والقدرة الإلهية.

ثمّ قال : « مقامي مقام العبودية ، وعلومي العلوم الإلهية ، وصفاتي مستمدة من الصفات الربانية ، بها عمر فكري.. فعلمي بالله متصل ، وعن كل من سواه

---

[1] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، ص 171.

[2] – المرجع نفسه ، ص 171.

منفصل اتصاله بحضرة قدسه ، ومسرحه في رياض أنسه ، فبالعلم بالله وبذاته وصفاته نلت الجاه ومعلومي هو الله.. ولا يسمو إلاّ من أتى الله بقلب سليم »[1].

ونخلص إلى أنّ " وحدة الحدث "[2] عند أبي مدين كانت سببا في تشكيل أسلوبه بكثير من العناصر القصصية ، هذه العناصر الّتي أعطت بعدا سرديا بنوع من الأدب تختلف طبيعته عن طبيعة الأدب السردي القصصي المألوف ، وهذا البعد الذي اندمج فيه الخطاب مع القصة ساعد على رسم التجربة الصوفية والذات الصوفية في بداية طريقها إلى نهايته في مسار قصصي شيق وصادق.

وبعد هذه الدراسة التطبيقية للمقومات الفنية لنثر أبي مدين شعيب الصوفي وما تضمنته من ألفاظ وصور وأساليب متنوعة نقف عند بعض صفات وخصائص هذا النثر، وتتمثل فيما يلي :

1- صدوره عن عاطفة صادقة وانفعال قويّ وتجربة عميقة « فلقد أحسّ القوم بنار الحب، فاكتووا بلهيبه وأرقهم ذكر الوصل »[3] ، فهو دائما في مناجاة إلهية ، وغي أنس وحضرة إذ كان يعيش في دائرة الحب الإلهي في حياته ، في تفكيره ، في حركاته ، فأدبه أدب رائع رفيع ، وطاقة روحية فعالة.

2- « إيمانه المطلق بالله وبالإنسان الذي استعزّ بعزّة الله »[4] ، فبفضل القدرة المبدعة الخالقة الّتي منّ بها الله عبده ، أصبح للصور الكونية معاني فسّرها الإنسان وأظهرها للوجود.

---

[1] – شعر أبي مدين التلمساني ، مختار حبار ، ص 135.

[2] – المرجع نفسه ، ص 173.

[3] – الأدب في التراث الصوفي ، الخفاجي ، ص 119.

[4] – المرجع نفسه ، ص 120.

3- بلاغته وروعته وجلاله وسحره وشدّة تأثيره على النفوس ، لما اشتمل من حكم وحبّ وجمال وحق.

4- وضوح أساليبه وجمال ألفاظه وسهولة تراكيبه ، أمّا من تفلسف من الصوفية كابن عربي وابن الفارض فقد صار الأدب الصوفي أدبا رمزيا في الغالب و"ألفاظا اصطلاحية" ، هذا ما أهّلهما لاكتساب شهرة فاقت شهرة الشيخ أبي مدين في مجال الأدب الصوفي.

5- الإيجاز البليغ ، ولكنّها تحتوي على معان دقيقة وهذا ما لاحظناه في حكمه وذلك حتّى يحفظ كلامه ويروى من بعده.

6- كما تمتاز حكمه بروائع ما اشتملت عليه من التمثيل والتشبيه والخيال والتصوير.

7- كثير الاقتباس من القرآن الكريم والسنة النبوية.

8- السجع جاء مطبوعا جميلا راشقا تضمنته معظم حكمه وإن كان الهدف هو إيصال البنية الفكرية.

9- جاء خطابه الصوفي مليئا بالمعاني وذلك لأنّ أدبه « ليس أدب ألفاظ وجمل جوفاء»[1]، إنّه أدب فكرة ودعوة وعقيدة وروح ، ليس أدب ترف وجمال وإنّما أدب الحقيقة المصطفاة النابعة من القلب.

ولعلّ صرخة " زكي مبارك " في حديثه عن أدب الصوفيين لأبرز دليل على ذلك إذ يقول : « أي والله كان للصوفية أدب هو أعلى وأشرف من أدب البحتري والمتنبي وأبي العلاء ، ولكن طافت بالناس طائفة من الجهل فتوهموا أنّ لا صلة بين

[1] - الأدب في التراث الصوفي ، الخفاجي ، ص 125.

الأدب والفنّ فراحوا يقفون فيما يتخيرون عند الكتاب والشعراء الذين ألفوا الروح المدنية ، واتخذوا غذاءهم من الكؤوس المترعة »[1].

[1] – الأدب في التراث الصوفي ، الخفاجي ، ص 127.

الخاتمة

الخاتمة

بالرغم من شهرة أبي مدين الواسعة وأهميته البالغة إلاّ أنّ إنتاجه الفكري لم ينل قسطا كبيرا وحظا وافرا من الدراسة ، ولعلّ من الأسباب الّتي جعلت الدارسين لا يلتفتون إلى مصنفات ومؤلفات الشيخ أبي مدين هو انشغالهم بمؤلفات ابن عربي ، وابن الفارض وغيرهم من المتصوفة الذين شغلوا الناس بفكرهم الصوفي الفلسفي وبكتاباتهم المختلفة حتّى أضحت المكتبات العالمية تعجّ بمؤلفاتهم وآثارهم الفكرية الصوفية الّتي نالت قسطا كبيرا من الدراسة والتحقيق والتحليل والتوثيق حتّى نالت شهرة كبيرة في ميدان التصوف الإسلامي ، في حين لم يهتمّ الدارسون بآثار أبي مدين – على الأقل بديوانه – وتقديم صورة واضحة عن صوفيته الّتي تشكل مرجعا أساسيا لكثير من متصوفة عصره والذين أتوا من بعده.

ومن خلال دراستي لشخصية الشيخ أبي مدين الصوفية ولخطابه الصوفي تأكّدت أنّ :

- أبا مدين كان وليا صالحا وقطبا وشيخا وفقيها ، قلّما نجد زهادا أو رجالا صوفيين أمثاله ، لأنّه جعل القرآن الكريم والسنة النبوية المنهاج الذي يسير عليه والذي أنار طريقه ، منذ بداية حياته حتّى وصوله إلى أعلى درجات التصوف أي القطبية.

- أنّه رجل دعوة وإرشاد غايته هي إخراج الناس من الظلمات وهدايتهم.

- أنّه رجل كرامات وأعمال خارقة للعادة خصّه الله بها لإقناع المشركين والمرتدين بوحدانية الله.

- كان دائما ينادي بالتوحيد ، الإقرار بالوحدانية.

- مصنفاته وآثاره العلمية الفكرية أزخر وأرقى ما عرفه الأدب الصوفي (وإن كان الاهتمام بها قليلا).

- حكمه عبارة عن درر نفيسة يمكن إدماجها في البرامج التربوية وفي الدراسات الأكاديمية للطلبة الباحثين والأساتذة الدارسين.

إذن فخلاصة القول أنّ الولي الصالح أبو مدين هو النبراس المضيء والمنهج الحقيقي والسليم لكل مسلم عاقل يريد التقيد بأحكام الله في حياته والفوز بمحبة الله، فالحب الإلهي – كما يراه المتصوفة – هو الذي أدّى إلى الكشف الإلهي والبقاء في الحضرة الإلهية والفناء فيها.

أمّا الجديد الوارد في هذا البحث فهو قيامي بتحليل حكمه في ضوء آرائه الصوفية، ومحاولة تقريبها إلى ذهن القارئ وذلك لما تحتويه من عبر ودروس مهمّة ونافعة في آن واحد - وكما سبق وأن ذكرت – يمكن إدراج هذه الحكم في البرامج التربوية ، خاصة وأنّها تمتاز بالإيجاز وسرعة وسهولة الحفظ وإن كان معناها عميقا لأنّها تحمل في طياتها آراء الشيخ أبي مدين الصوفية ورؤياه ، وتوضيح معالم الصوفية - والّتي لا شك فيه - أنّها مستمدّة من الشريعة الإسلامية المتمثلة أساس في كتاب الله عز وجلّ القرآن الكريم ، وفي أحكام الرسول ﷺ السيرة النبوية والأحاديث الشريفة.

وأخيرا أرجو أن يكلّل هذا العمل بالنجاح والتوفيق ، وأن أكون ساهمت ولو بقسط يسير في إثراء وإبراز جوانب هذه الشخصية ، شخصية الولي الصالح أبي مدين شعيب.

ملحق

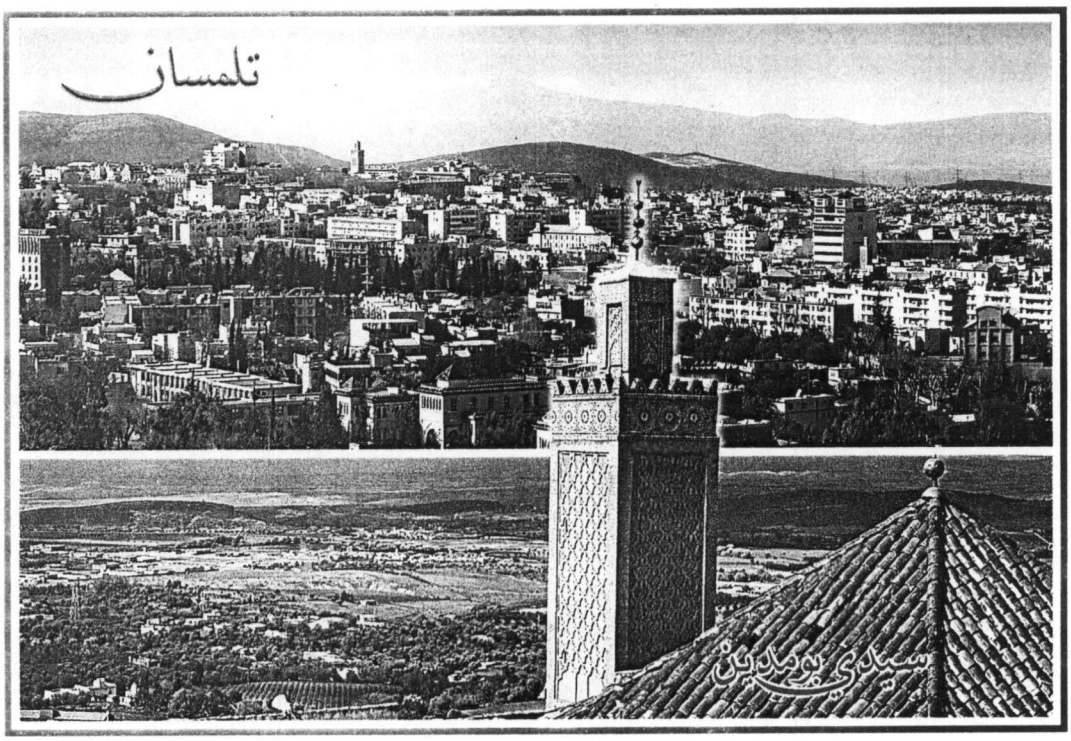

تلمسان منظر جزئي – سيدي بومدين.

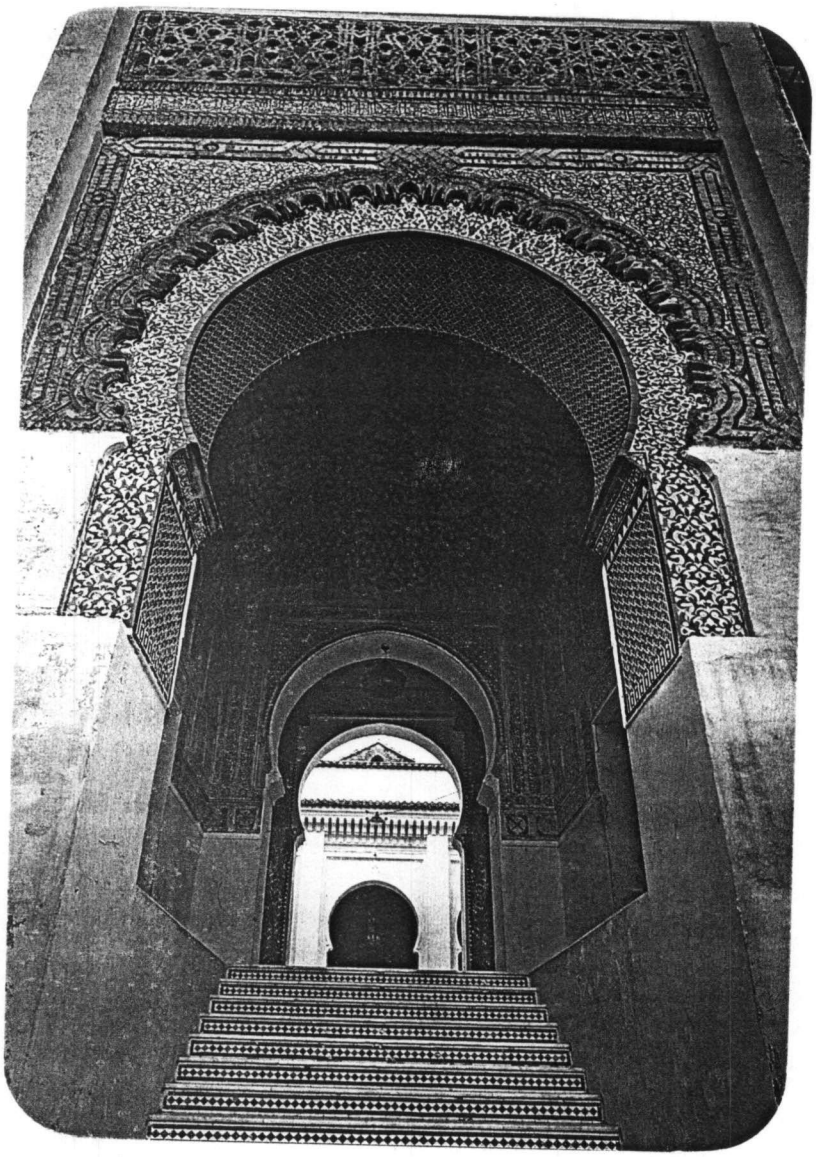

مدخل مسجد سيدي بومدين

الفن المعماري الأصيل.

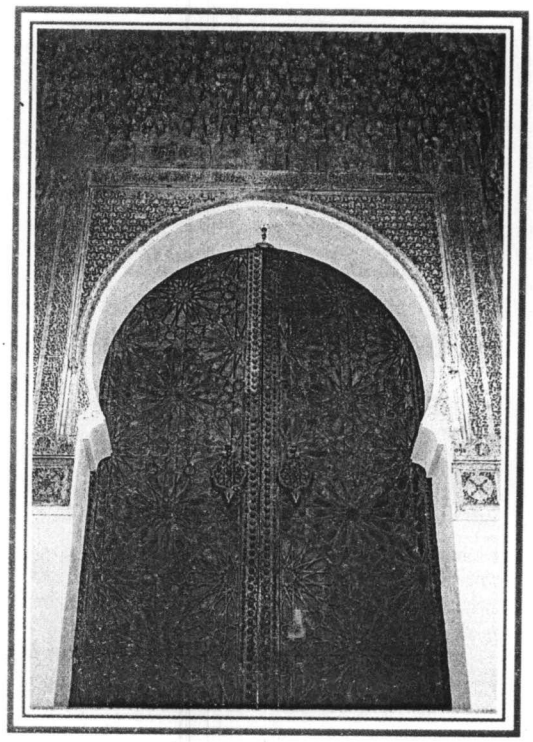

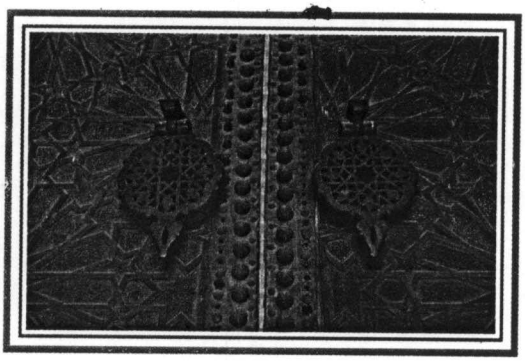

أحب لقا الأحباب في كل ساعة

لأن لقا الأحباب فيه المنافع

مدخل مسجد سيدي بومدين.

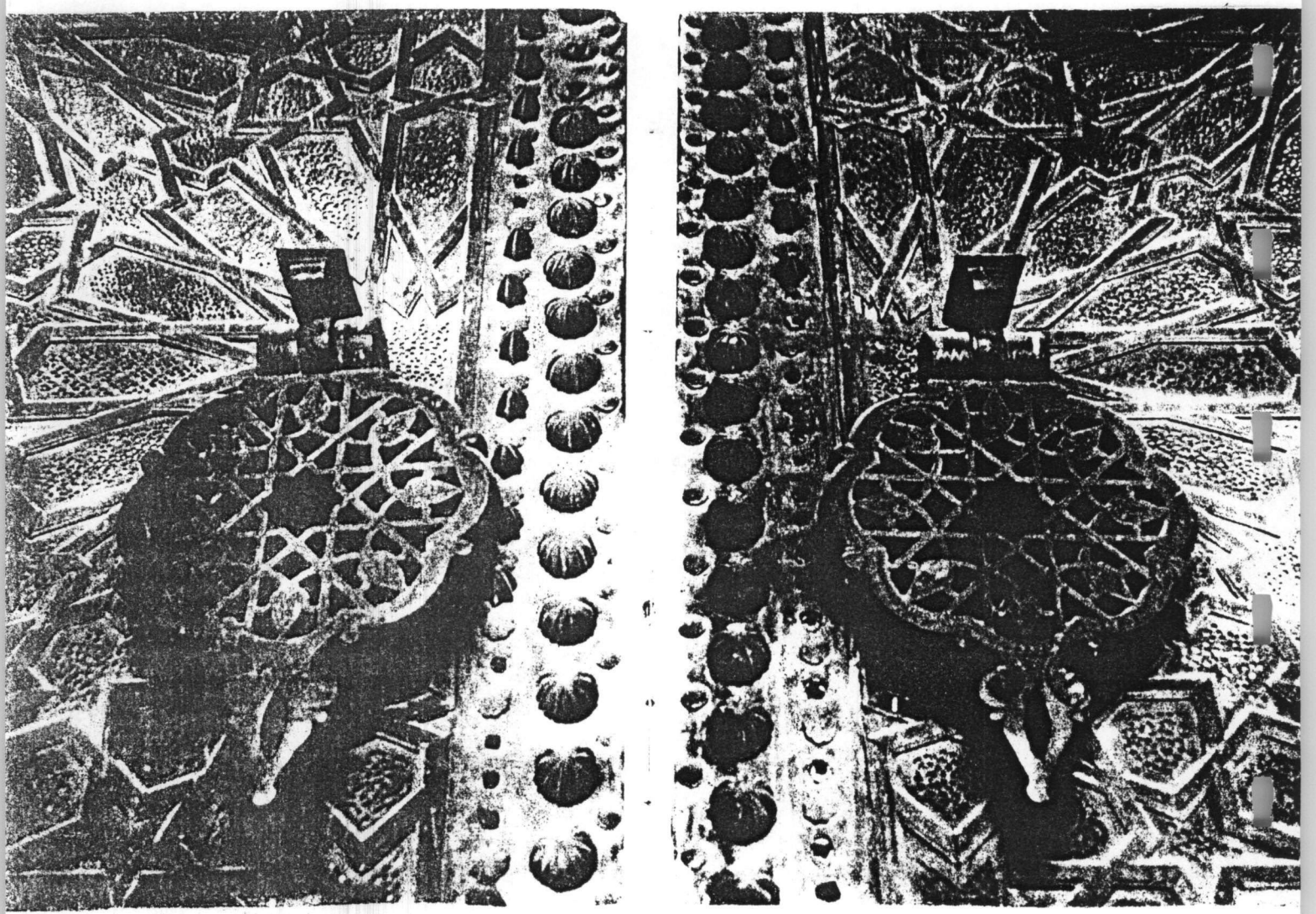

قفل باب مسجد سيدي بومدين.

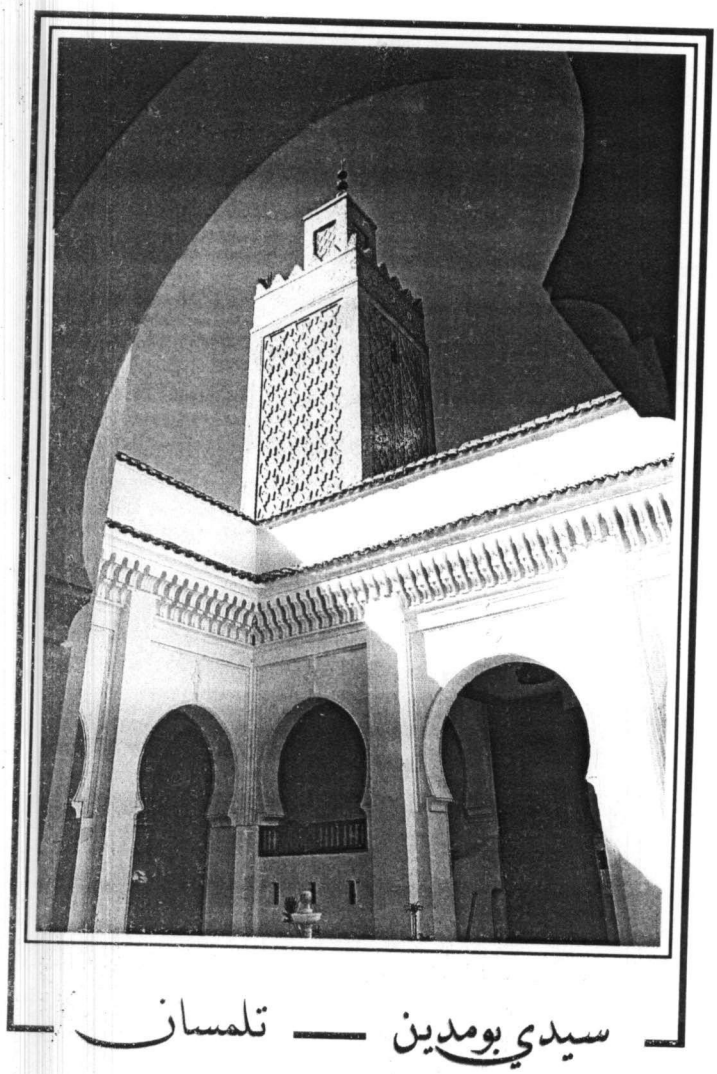

سيدي بومدين ـــ تلمسان

مسجد سيدي بومدين.

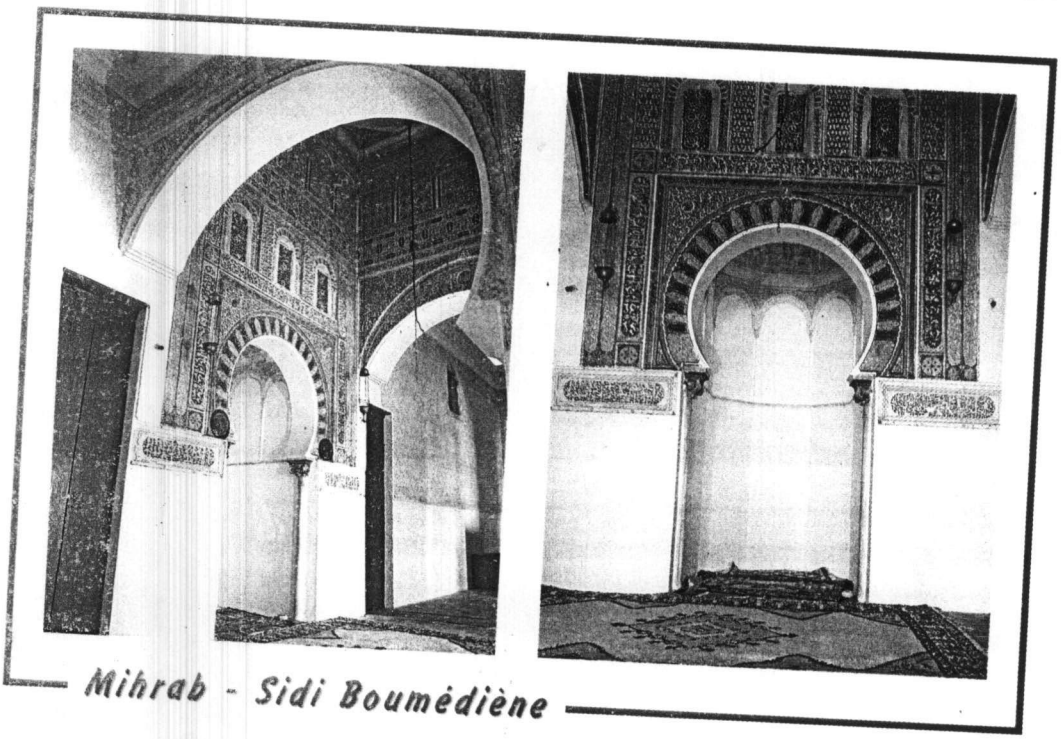

Mihrab - Sidi Boumédiène

محراب سيدي بومدين.

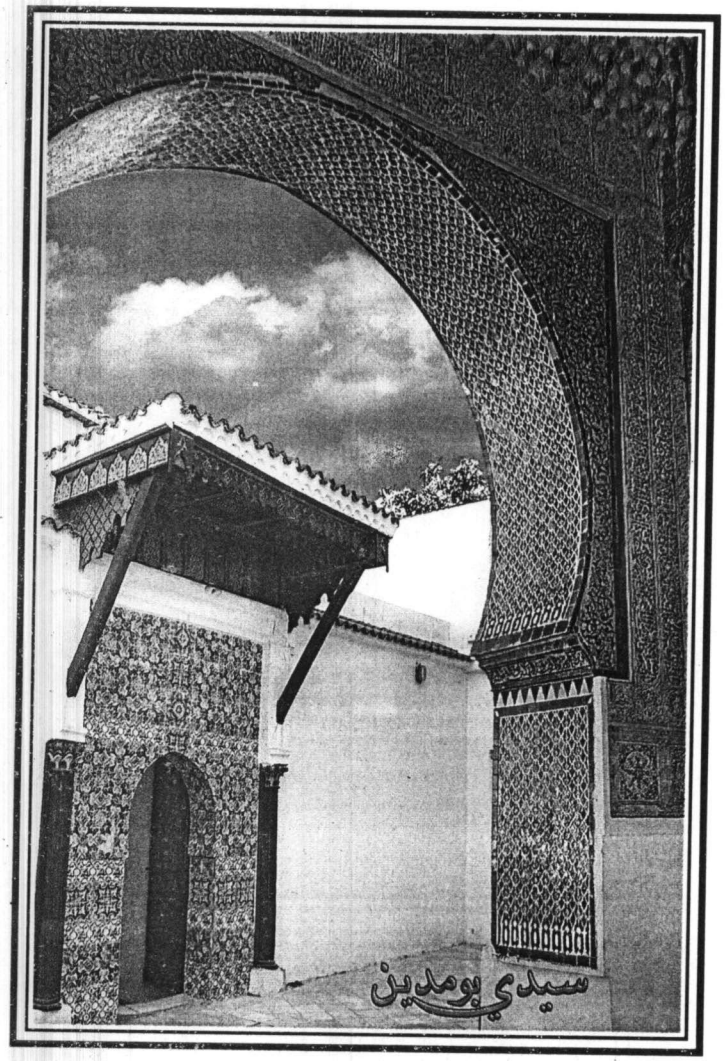

مدخل ضريح سيدي بومدين.

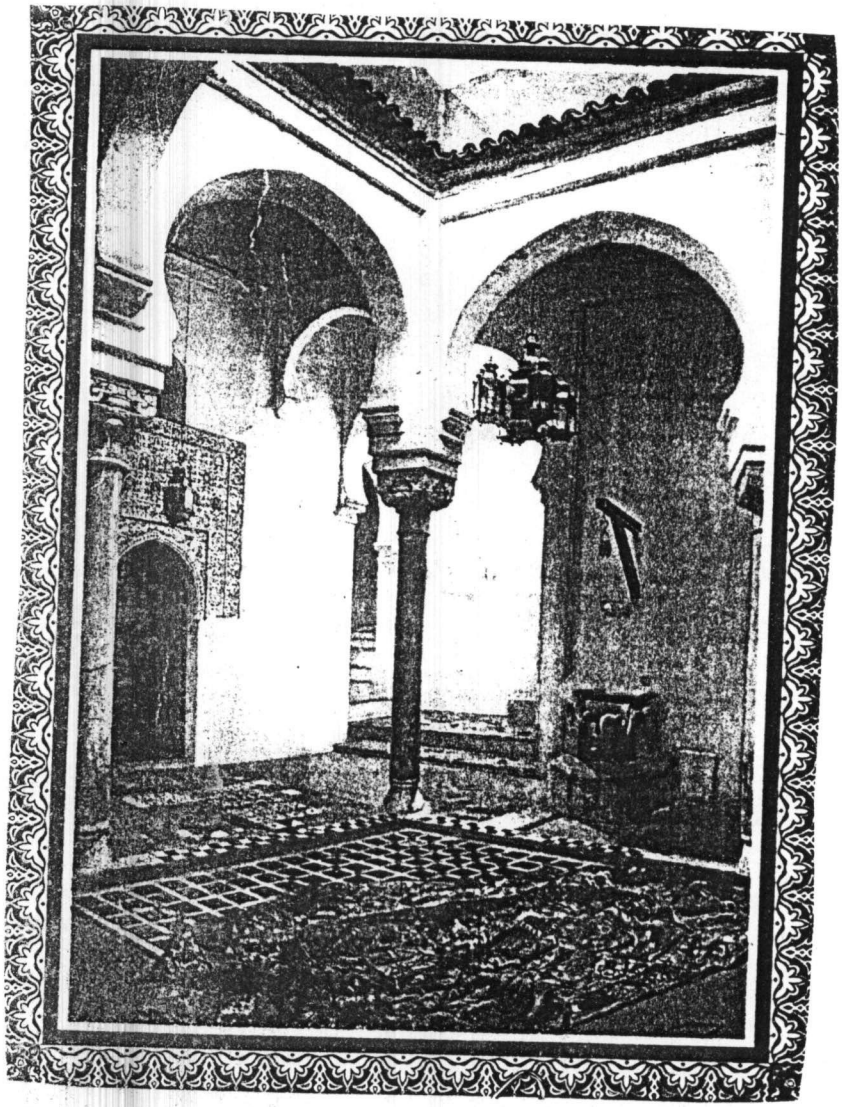

مدخل ضريح سيدي بومدين.

على اليمين البئر المباركة.

ضريح سيدي بومدين.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع

* القرآن الكريم (رواية حفص).

* الحديث النبوي الشريف.

أ) **الكتب** :

1- **أبو بكر جابر الجزائري** :

عقيدة المؤمن ، دار الشروق ، ط3 ، جدة ، 1402هـ/1982م.

2- **أبو بكر جابر الجزائري** :

منهاج المسلم كتاب عقائد وآداب وأخلاق وعبادات ومعاملات ، دار الفكر، ط8، المدينة المنورة ، 1396هـ/1976م.

3- **أبو مدين بن الحسين الأنصاري** :

الديوان المسمّى المتن الربانية الوهبية في المآثر الغوثية الشعبية ، جمعه ورتبه سيدي العربي بن مصطفى شوار التلمساني ، مطبعة الترقي ، ط1 ، دمشق ، 1357هـ/1938م.

4- **ابن تيمية تقي الدين أحمد** :

الفرقان بين أولياء الرحمان وأولياء الشيطان ، دار الكتب العلمية ، د.ط، بيروت، لبنان ، د.ت.

5- **ابن خلدون عبد الرحمن أبو زيد ولي الدين :**

المقدمة ، دار الكتاب العربي ، بيروت ، لبنان ، د.ط ، د.ت.

6- **ابن عربي محي الدين :**

رسائل ابن عربي ، دار الكتب العلمية ، ط 2 ، بيروت ، لبنان، 1425هـ/2004م.

7- **ابن عربي محي الدين :**

محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار في الأدبيات والنوادر والأخبار، ج1 وج2 ، د.ط ، دار صادر ، بيروت ، د.ت.

8- **ابن عطاء الله السكندري :**

عنوان التوفيق في آداب الطريق ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1424هـ/2003م.

9- **ابن قنفذ القسنطيني أبو العباس أحمد بن الخطيب :**

أنس الفقير وعز الحقير، نشر وتصحيح محمد الفاسي وأدولف فور، المركز الجامعي للبحث العلمي ، د.ط ، الرباط ، 1961م.

10- **ابن مريم التلمساني أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد :**

البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، د.ط، الجزائر ، 1986م.

11- **باعشن شهاب الدين أحمد بن عبد القادر :**

البيان والمزيد المشتمل على معاني التنـــزيه وحقائق التوحيد على أنس الوحيد ونزهة المريد ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان، 1426هـ/2005م.

12- **بوعزيز يحي :**

مدينة تلمسان – عاصمة المغرب الأوسط ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، ط2، 2004م.

13- **التنبكتي أحمد بابا :**

نيل الابتهاج بتطريز الديباج ، منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس ، 1989م.

14- **جاد الله منال عبد المنعم :**

التصوف في مصر والمغرب ، جلال جزي وشركاه ، د.ط ، الإسكندرية ، د.ت.

15- **الجرجاني علي بن محمد :**

التعريفات ، ضبطه وفهرسه محمد بن عبد الحكيم القاضي، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني ، ط1 ، القاهرة ، بيروت ، 1411هـ/1991م.

16- **الجيلاني عبد القادر :**

بـــهجة الأسرار ومعدن الأنوار في مناقب القطب الرباني ، تأليف الشطنوفي، تعليق محمد حسني مصطفى ، دار القلم العربي ، ط1 ، سوريا ، 1423هـ/2003م.

17- **حاجيات عبد الحميد :**

الجواهر الحسان في نظم أولياء تلمسان ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، د.ط ، الجزائر ،1394 هـ/1974م.

18- **حبّار مختار :**

شعر أبي مدين التلمساني – الرؤيا والتشكيل ، منشورات اتحاد كتاب العرب، د.ط ، دمشق ، 2002م.

19- **حميدو عبد الحميد التلمساني :**

السعادة الأبدية لأبي ميدن شعيب فخر الديار الإسلامية ، المطبعة الجديدة بطالعة فاس ، 1354هـ/1935م.

20- **خفاجي محمد عبد المنعم :**

الأدب في التراث الصوفي ، مكتبة غريب ، د.ط ، القاهرة ، د.ت.

21- **دهمان أحمد علي :**

الصورة البلاغية عند عبد القاهر الجرجاني منهجا وتطبيقا ، ج1، دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر ، ط1 ، 1986م.

22- **شاوش الحاج محمد بن رمضان :**

باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، 1995م.

23- **الشايب أحمد** :

الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية، مكتبة النهضة المصرية ، ط6 ، القاهرة ، 1966م.

24- **الطوسي أبو نصر عبد الله بن علي السراج** :

اللّمع في تاريخ التصوف الإسلامي ، تحقيق عماد زكي البارودي، المكتبة التوفيقية، د.ط ، القاهرة ، مصر ، د.ت.

25- **عاصي حسين** :

التصوف الإسلامي – مفهومه ، تطوره ، ومكانته من الدين والحياة ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر ، ط1 ، الجزائر ، 1414هـ/1994م.

26- **عبد الحليم محمود** :

المنقذ من الضلال، دار الكتاب اللبنانية، ط1، بيروت، 1979م.

27- **عبد الحليم محمود** :

شيخ الشيوخ أبو مدين الغوث حياته ومعراجه إلى الله ، منشورات المكتبة العصرية ، د.ط ، صيدا ، بيروت ، د.ت.

28- **عبده الشمالي** :

دراسات في تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية وآثار رجالها ، دار صادر ، ط4، بيروت ، 1965.

29- **علاوي محمد الطاهر :**

العالم الرباني سيدي أبو مدين شعيب ، ج1 ، شركة دار الأمة ، ط1 ، الجزائر ، 2004م.

30- **العلاوي أحمد بن مصطفى :**

المواد الغيثية الناشئة عن الحكم الغوثية ، المطبعة العلاوية ،ج1 وج2، ط2، مستغانم ، الجزائر، 1989م.

31- **الغبريني أبو العباس أحمد بن محمد :**

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، تحقيق رابح بونار، مركب الطباعة ، ط2 ، الجزائر ، 1981م.

32- **الغزالي محمد أبو حامد :**

إحياء علوم الدين ، دار المعرفة ، د.ط ، بيروت ، لبنان ، 1402هـ/1972م.

33- **فارسي حسين :**

أبو مدين شعيب حياته وأدبه ، دار الغرب للنشر والتوزيع ، د.ط، 2005م.

34- **فروخ عمر :**

التصوف في الإسلام ، دار الكتاب العربي ، د.ط ، بيروت ، لبنان، 1401هـ/1981م.

35- **القشيري أبو القاسم عبد الكريم بن هوزان :**

الرسالة القشيرية في علم التصوف ، تحقيق معروف مصطفى زريق ، المكتبة العصرية ، ط1 ، صيدا ، بيروت ، 1421هـ/2001م.

36- **المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد :**

المسائل في أعمال القلوب والجوارح ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، لبنان ، 2000م.

37- **المحاسبي أبو عبد الله الحارث بن أسد :**

الوصايا أو النصائح الدينية والنفحات القدسية ، تحقيق وتعليق وتقديم عطا عبد القادر أحمد ، دار الكتب العلمية ، ط1 ، بيروت ، لبنان ، 1424هـ/2003م.

38- **مرتاض محمد :**

من أعلام تلمسان ، مقاربة تاريخية – فنية – دار الغرب للنشر والتوزيع ، د.ط ، 2004م.

39- **المقري أحمد بن محمد :**

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج9 ، دار الكتاب العربي، د.ط ، بيروت ، لبنان ، 1369هـ.

40- **النبهاني يوسف بن إسماعيل :**

جامع كرامات الأولياء، ج1 وج2 ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، د.ط ، بيروت ، لبنان ، 1414هـ/1993م.

41- **النووي محي الدين أبو زكريا يحي بن شرف :**

بستان العارفين ، دار ابن حزم للطباعة والنشر ، ط1 ، 1415هـ/1994م.

42- **النووي محي الدين زكريا يحي بن شرف :**

رياض الصالحين، دار الكتاب الحديث، ط1، عام 1423هـ/2002م.

43- **النيسابوري أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم :**

قصص الأنبياء ، دار الكتب العلمية ، د.ط ، بيروت ، لبنان ، 1414هـ/1994م.

ب) **الدوريات :**

44- **الخلادي عبد القادر :**

أبو مدين الغوث، مجلة الأصالة، العدد 126 ، عام 1395هـ/1975م، السنة الرابعة تصدر عن وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينية.

ج) **الرسائل الجامعية :**

45- رسالة ماجستير نوقشت بكلية الآداب (جامعة باتنة) ، عنوانها " أبو مدين شعيب – دراسة أسلوبية لشعره – ".

46- **وحياني لخضر :**

كرامات الأولياء ، رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الاجتماعية ، جامعة تلمسان ، 2001م/2002م.

د) مواقع الأنترنت :

47- http://annales.univ.Mosta.dz.texte

48- http://www.tariqua.org/ishara/n28

49- http://www.nizwa.com

50- http://kitabat.com

الفهرس

45 .....

الفهرس

الموضـــــــــوع	الصفحة
المقدمة	أ
الفصل الأوّل : حياة أبي مدين شعيب وتكوينه العلمي	1
1) نشأته وتكوينه العلمي	2
2) شيوخه	13
3) آراء الآخرين فيه	31
4) آثاره	45
الفصل الثاني : نثر أبي مدين شعيب	58
1) كراماته	59
أ) الكرامة والمعجزة	62
ب) كرامات أولياء الله تعالى	74
ج) مصطلح الصوفية والفقراء	80
2) حكمه	100
أ) حكمه في العلم النافع	103
ب) حكمه في التوكل على الله عز وجل	105
ج) حكمه في الزهد والقناعة	107

الفصل الثالث : المقومات الفنية لنثر أبي مدين شعيب..... 124

1) اللغة..... 125

2) الصورة..... 143

3) الأسلوب..... 156

الخاتمة..... 179

ملحق..... 182

قائمة المصادر والمراجع..... 192

الفهرس..... 202